

الكتاب العربي السعودي ١٨

أحمد السباعي

خالتي كدرجان

مجموعة قصصية

الطبعة الثانية
١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

أردتها أقاصيص من صميم الحياة..

أردتها لتكون مرآة يصافحنا فيها واقعنا من غير رتوش!!

وأنا أؤمل أن تعالج بأمثالها بداواتنا الخاطئة!!

سباعي



* * *

خالتي كدرجان

لم يكن اسمها "كدرجان"، ولكنه لقب سترثي لها إذا عرفت كيف غلب عليها وأصبحت لا تُنادى إلاَّ به.

وإذا كان سنها قد زاد على الخمسين في نظر بعض جاراتها فإن بعضهن يؤكدن أنها أكبر سناً من عم عيدروس بائع الزرنباك المتجول، ويؤكد هذا عيدروس نفسه فيقول: "إنها كانت تلبس "الغتفة !! (1) "يوم كنت طفلاً اقرأ في كتاب المغربي بجوار بيت أمها". فهي في نظره لا تقل عن سن الستين إلاَّ بعامين أو ثلاثة.

أما خالتي كدرجان فلا تُعنى بكل هذا.. إن حساب السنوات في نظرها دوشة.. إنها تذكر أنها تعرف سنة السيل الكبير وهي صغيرة، وأنها شافت الفيل في مكة وهي صغيرة، وأنها

([1]) ـ غدفه، هي بالدال والعامة تنطقها بالتاء وتقول: أغدفت المرأة قناعها أي أرسلته على وجهها، (صحاح الجوهري)، مادة أغدف. الناشر.

حضرت زينة الشريف وهي صغيرة، فإذا قيل لها إن بين هذه الحوادث سنوات طويلة صكّت وجهها وهي تقول: "وصامني.. أنا هادي الدوشة تفلق رأسا"، إنها في نظر نفسها لم تتجاوز الثلاثين إلاّ من سنوات نسيت عددها.. تقول هذا في تصميم قاطع وتزيد فتؤكِّده لك بهندامها وهي تخطر بين فسحة الديوان الذي تسكنه وباب الحنية الصغيرة التي جعلت منها مطبخاً يطرقع القبقاب في رجليها، وهي تتهادى في دلال الفتاة ذات العشرين.

كنا يومذاك صِبية نلعب الغميمة بين ملاوي زقاقنا، وكنت شخصياً صاحب دل عليها فلا يحلو لي أن أختبيء –إذا احتدم اللعب– إلاّ في بيتها، وكانت لفرط حنوها إذا رأتني هارعاً إليها وأنا ألهث ظنتني خائفاً ممن يطاردني ليضربني، فتشير لي بيدها إلى الكنبة التي تتصدر الديوان لأختبيء تحتها خلف السجاف، فإذا فرغ روعي تسللت على أطراف أصابعي، فكانت إذا رأتني تقف دوني لتمنعني من الخروج: "كم مرة يا واد.. قلت لك لا تخلي البزورة يتلمّوا عليك.. هادول أشقياء وأنت صغير"، وهي لسذاجتها لا تدري أنها طبيعة اللعبة وأن المغموم يجب أن يهتدي إلى مخابيء المُنْدَسّين أو أحدهم ليصبح فيه "الدست."

كنت ألاحظ أن خالتي كدرجان تُعنى كثيراً بمكحلتها، وهي تحتفظ بجانب المكحلة بعلبة صغيرة أراها كثيراً ما تمد يدها إليها، لتتناول منها بأصبعها شيئاً تدعكه بين يديها، ثم تغشى به وجهها، فكنت لا أعلق شيئاً على ما تفعل.

وكنت كثيراً ما أراها تجلس إلى "نصبة" الشاهي وقد فرغت منه، فتزيح التبسي والفناجيل وتركز في مكانهم فوق كرسي النصبة مرآة، ثم تأخذ بيدها مقصاً تمر به على شعر رأسها فتلتقط به شعرة من هنا وأخرى من هناك بيضاء ناصعة، وكانت لفرط استخفافها بي كطفل ترجوني أن أساعدها بالنظر في شعرها؛ فإذا لمحت شعرة بيضاء دفعتُ المقص لالتقاطها، فكنت أتحدث إلى أمي في بعض الأمسيات التي تجتمع فيها مع الجارات، فكن يتضاحكن ويتغامزن، وربما تأوَّهت إحداهن في مرارة وقالت إنها مسكينة؛ فيمصمصن شفاههن ويبادلنها القول إنها مسكينة.

كنت لا أفهم وجهاً لهذه المسكنة وهذا التوجُّع الذي يُبدينه تعليقاً على خالتي كدرجان، وكان يُخيَّل إليَّ أنها أكثر رقة وأحلى معاملة من كل جاراتنا بما فيهن أمي، وكنت ألاحظ من عنايتها بنفسها وبالناس ما لا أجد له مثيلاً بين كل الجارات اللاتي أغشى منازلهن.. كان مسكنها على صغره نظيفاً بشكل يسترعي الانتباه، وكانت مساند الكنبة التي تستقبل عليها ضيوفها محلاة بالترتر البراق، ومخداتها في وسط الكنبة مطرزة بأشجار يلمع فيها اللازوردي والأصفر، وفي حواشيها سطور كان يروقني شكلها؛ وإن كنت لا أحسن إلاَّ قراءة كلمة "آه" بين مقاطعها.

كانت تخدم بيتها وهي في أحلى زينتها تلبس الكرتة من قماش رقيق شفاف، وتعقد شعرها بمشط تلمع فيه الفصوص، أما الشبشب الذي تتهادى به في خيلاء؛ فكأنه لم يلبس في رجلها إلاَّ من يومه.

وكنت ألاحظها وهي مغمورة في خدمتها رشيقة أكثر مما تعودت في بيتنا وفي جميع بيوت الجيران حولنا، فهي لا تتناول الأشياء إلاَّ بأطراف أصابعها، فكنت كلما نقلت هذا إلى أمي وهي في مجمع من جاراتها لا يروعني إلاَّ توجعهن لخالتي كدرجان ومصمصة شفاههن وهن يردِّدن: "مسكينة يا ولدي.. قول يا لطيف". ولا أذكر في ذلك السن – الغرير– أنه كان يعنيني من أمر خالتي كدرجان شيء كما يعنيني أن أوفّق بين هذه الحياة الناعمة الرشيقة التي كانت تحياها خالتي كدرجان وتتألق في عيني كطفل، وبين هذا التوجع الذي ألاحظه على أمي وجاراتها كلما مرَّ بينهن ذكراها.

ومرَّت السنون طويلة مملة تُوفيت أثناءها أمي ولحقت بها أكثر جاراتها، ووجدتني أشب عن الطوق فأمنع نفسي عن ديوان خالتي كدرجان مسرح لعبي أيام الطفولة فلم أعد أسمع عنها شيئاً، ثم بلغني أنها أُصيبت في بعض أيامها بلوثة في عقلها فانتقلت إلى بيت بعض قريباتها؛ وأنها ما لبثت أن تُوفيت بمرضها. انتهى خبرها إليَّ من عجوز كانت البقية الباقية من جارات أمي امتد بها العمر إلى عهد متأخر، فاستحلفتها لتخبرني قصة "خالتي كدرجان"

التي كانوا يأسون لها ويتوجعون لحالها رغم الحياة الناعمة التي كانت تحياها، ففهمت الكثير الذي كنت أعجز عن تعليله.

شبَّت خالتي "كدرجان" في كنف والدها هيفاء في جمال مفرط، وكانت تعيش وإيَّاه في هذا البيت الكبير وحدهما، لأنها فقدت والدتها وهي في سن الرضاعة، ثم فقدت أختها وهي يافع ولم يبقَ من عائلتها غير أبيها الذي كانت تشرف على سائر خدماته؛ وكان بدوره يُدلِّلها ويؤمِّن لها جميع رغباتها.

كان الوالد شيخاً تقدمت به السن، وكان ثرياً من ذوي الأملاك، وكان يسكن وإياها في هذا القصر، وهو من بعض أملاكه عندما كانت يافعاً يتألق ماء الشباب في محياها الفاتن.

واشتد الطلب على يدها فلم يوافق الوالد على زواجها بدعوى أنها (وحدة وحيلة)، وأنها (تشيل كبرته)، ولكنَّ العالمين ببواطن الأمور كانوا يعرفون أنه يخشى أن تنتقل أمواله إلى يد أجنبية.

عاشت الفتاة في بيت أبيها منطوية على خدمته، ولم يطل ذلك كثيراً فقد وافاه الأجل وهي لمَّا تزل في ميعة صباها، فما كادت تنتهي أيام المأتم حتى تقدم ليدها ابن عمها وكان يحتل بعد أبيها مقام الوصي عليها، ولكنها أبت قبول يده فهو والد لأتراب في مثل سنها؛ ولما أصرَّ ثبتت عند رفضها في عناد.

وجازاها بعناد مثله إذ رفض باعتباره وصياً عليها كل يد تتقدم لخطبتها.. كان يخترع لكل خطيب عيباً يستند عليه في الرفض حتى استطاع أن يحكم عليها لتعيش عانساً في بيتها.

لقد كان رزقها مكفولاً من حصتها في أملاك أبيها، ولكنها مع هذا عاشت فارغة تتطلع ككل فتاة إلى من يملأ فؤادها وتحلم بالفارس الجميل حتى في أوقات يقظتها.

ولما طال انتظارها عبثاً اتسع القصر الذي تسكنه على وحدتها القاسية فانتقلت ببعض أثاثها إلى الديوان في أسفل طبقة منه وعرضت الباقي للإيجار وعاشت تتجرَّع غصَّة وحدتها.

ومضت بها الأيام قبل أن تستيقظ ذات صباح على من يطرق الباب.. كانوا ضيوفاً من إندونيسيا قدموا إلى الحج من عامهم ذلك.. رجلاً وامرأتين يحملون إليها رسالة من بعض

أقرباء أبيها فاستقبلتهم في لثام رقيق على عادة نساء مكة في استقبال الحجاج اعتماداً على الثقة فيهم كحجاج، وبعد أن تناولوا تحيتهم قهوة أو شاياً، شعرت أن عين الشاب تسارقها النظر في لهفة فلم تُعلِّق كثيراً على هذا؛ رغم أنها أنست ارتياحاً واستطاعت أن تغافله لتنام عدة ثوانٍ بين أهدابه.

ولم تمض إلاَّ ساعات بعد وداع الضيوف حتى طرق الباب لتستقبل في هذه المرة شيخة الحجاج جاءت لتنقل إليها رغبة ضيوفها في طلب يدها لابنهم الشاب الذي كان يصحبهم في زيارتها قبل ساعات.

وصادف الحديث هوى في نفس فتاتنا فاتسع وتشعبت وجوهه وكان لا بد أن يتداعى إلى قصة ابن العم الذي يمثِّل الوصاية عليها ويحاول بشتى الوسائل ألاَّ يتم لها قِران.

ولكن الشيخة كانت شيخة في صرامتها فقد أهابت بها وهي تودعها "شوفي يا بنتي الولد بعد الحج يسافر بلده مع أمه وأخته اللي شفتيهم يأخذ رضا أبوه ويأخذ اللي فيه النصيب علشان المهر واللي منه ويجيكي راجع.. أبوه يبغاه يدرس هنا ويبغاه يكمل دينه ويربط رجله. لا تقولي ولد عمك يرضى ما يرضى.. أنت مو صغيرة.. أخطفي رجلك إنتي وهو بعدين وعلى بيت القاضي يعقد لكم ما دام إنتي راضية ومنت قاصرة ها..؟ اتفقنا.

–اللي تشوفيه.

–يعني خلاص؟؟..

–زي ما تقولي!! أصله انتي زي أمي"!

ومضى موسم الحج وأقلعت آخر باخرة للإندونيسيين عائدة بهم إلى بلادهم فعاشت تحصي شهور العام الجديد في أعصاب متوترة لا تعرف القرار.. إنها فرصة العمر.. سوف لا أتركها تضيع من يدي.. لا قيمة للصداق عندي قلَّ أو كَثُر.. ما أعظم "ستي الشيخة وما أعظم أفكارها.. سوف أصحبه إلى بيت القاضي وأقرر موافقتي في أول يوم يطرق فيه بابي.. ما أحلى أن أجد إنساناً يملأ فراغ بيتي بعد طول هذه السنين.. لك الرحمة يا أبي فقد قيدتني في حياتك لأفكارك الخاصة، وأسلمتني بعدك لهذه الوحدة المريرة، وأبحت للندل

ابن أخيك أن يقيدني لمنفعته الشخصية، ويضيف إلى السلسلة أقفالاً جديدة.. سأحطم هذه السلسلة مهما كانت متانتها.. فتعال.. تعال يا رفيق روحي.. ليتك تسمعني."

ولكنه لم يسمعها فيما يبدو وقد أهلت أول باخرة تقل الإندونيسيين إلى جدة في العام الجديد ثم تقاطرت بعدها البواخر دون أن تسمع عنه خبراً وانتهى الموسم وتلاه آخر وآخر وفتاتنا تنتظر دون أن تفقد الأمل.

وحاولت أن تعرف رأي "الشيخة" فيما سبب هذا الغياب ولكن أين هي "الشيخة"؟. لقد كانت زيارتها بيضة الديك لم تتكرر بعدها، وقد فاتها لفرط دهشتها يوم أن زارتها أن تعرف اسمها وعنوان سكناها؛ ومع هذا فهي لم تفقد الأمل!!

وظلت فتاتنا تعيش على هذا الأمل سنوات وسنوات تسلَّلت الكهولة أثناءها إلى محيّاها الوسيم، وظهرت آثارها فيما تغضَّن من وجنتيها، ولكنها تأبى رغم ذلك أن تعترف بما تقدَّم من سنها. ظلت تعيش في أحلام اليقظة تترقبه في كل حركة يخفق بها الزقاق الطويل، وتصيخ بسمعها لكل طارق ولو على أبواب جيرانها خشية أن يكون قد ضل سبيله إلى بابها؛ وهي لهذا دائمة الزينة تتناول أعمالها في خدمة البيت بأطراف أصابعها في رشاقة العروس المجلوة من ليلتها.

وتضحك جاراتها لما تتكلَّف من الأناقة في غير مناسبتها، وبما لا يليق من تقدم سنها.. فأما العارفات منهن بدقائق النفس كنتيجة للتجارب، فيرثين لها ويُوقعن باللوم على أبيها الذي هيَّأها لمثل هذا الهوس؛ وأما البدائيات فحسبهن ما يجدن في سيرتها من مفارقات تغري بالسخرية منها.. وهن لهذا يطلقن عليها "خالتي كدرجان."

صبي السلتاني



* * *

والسلتاني "نفع الله" شوّاء كان معروفاً بطريقته الخاصة في شيِّ اللحم في أكثر مدن الحجاز، يوم كان اللحم وحده عمدة الطعام؛ وكان سعره مشوياً في دكان السلتاني لا يزيد عن قرشين للرطل.

لا أدري لِمَ سُمّي هذا النوع من الشيِّ (سلات)، إلاَّ إن كان اشتقاقاً من اللغة، ففي اللغة سلت الشيء قطعهُ. وكان السلتاني في بلادنا يقطِّع اللحم بصورة فنية بعد تجريده من العظم إلى شرائح خفيفة، ثم ينصب في دكانه (مِنَصَّة) عالية تتوسط الدكان، يعتلي فوقها على كرسيه ويجعل أمامه كانون الشواء، وهو كانون واسع يعلوه حجر رقيق الصفحة يبسط عليه شرائح اللحم ويتحلّق الزبائن حوله تحت المنصة؛ "هات من فضلك نصف رطل.. وقمِّر معاه العيش."

وهو لا يعطيك نصيبك من الشواء إلاَّ منجماً.. ملقاطه يتخلَّل شرائح اللحم ليلتقط الناضج فيجعله في طبقك، وهو لا يزيد بحال عن قطع معدودة خمس أو ست تتلمَّظ بها لبينما ينضج الباقي؛ فيوافيك ساخناً طبقاً بعد طبق.

وأكبر ظني أن أستاذنا القنديل أدرك آخر هذا العهد، وكان أحد زبائن (السلات) يوم كان يعيش في مكة عاملاً في رئاسة تحرير صوت الحجاز وكان مغرماً بدكاكين الشواء من لحوم وقلوب وأكباد، وكان معروفاً لفوالة باب العمرة وأصحاب المطبق؛ والمعصوب فيها.

وكان من أشهر دكاكين السلات في مكة دكان عم خليل السلتاني بالقرب من باب العمرة، وهو رجل طويل، عريض ما بين المنكبين، تزدحم بطنه البارزة بين الكانون والكرسي فوق المنصة؛ فينثني ضاغطاً عليها ليلتقط الناضج من الشرائح في أقصى طرف من حجر الشواء. وكان زبائنه يستمرئون الطعام عنده لفنه وفرط عنايته بتشريح قطع اللحم وشيِّها، وهو إلى هذا خفيف الظل حاضر النكتة يرسلها بداهة، فيضج الدكان بضحك المزدحمين من زبائنه، وتصافح أذنه أختها من أحد الطاعمين؛ فيرسلها قهقهة عالية تهتز لها مراقية وتسمع قرقرتها في بطنه كأنها قرع الإناء من النحاس.

وصاحبنا خليل السلتاني كان معروفاً إلى جانب فنه في الشواء وبراعته في النكتة بحرصه على الهللة لا يشتري بها الإبرة إلاَّ إذا عزَّ على أمه أن تستعيرها من الجيران أو ضاق الجيران بها.. واضطروها لتترك خليلاً يلبس قميصه بادي الشقوق.. وعندها يجد خليل أن لا مناص من الهللة يقدمها قرباناً على مذبح دموع أمه الغالية.

ويبدو حرص خليل وشحه البالغ واضحاً في طريقته وهو يختار صبيَّه في الدكان.

كان من مميزات صبيه (أبو طافش)، أنه أمين على دكان عمه بشكل نادر، ولكن الخبثاء حول خليل لا يعلِّلون أمانة صبيه بما يعرف من خلال الأمناء، فهم يقولون إن فهمه لا يُحيط بالحيل التي يجب أن يمتاز بها المختلس، فهو إذا صفا ذهنه مرة واستطاع أن يعي ما فوق العشرة في حساب الهلل عجز في مرة أخرى أن يحصي أكثر من الخمسة، أو اضطر أن يقول لك إنها خمسة وثلاثة وعليك معرفة مجموعها، وكل هذه الذهنية لا تجرؤ على اختلاس

الحرام لأنها ستلتاث عند أول ملاحظة تواجهها؛ فمن الخير أن يكون: "الباب اللي يجيك منه الريح.. سدّوا واستريح."

كان خليل يعرف هذا في صبيِّه ولهذا عاش مطمئناً إليه راضياً به، ولِمَ لا يطمئن ويرضى وهو إلى جانب هذا قنوع حسبه من عمه أن يملأ بطنه من فضلات ما يُطعم الناس، دون أن يطمع في أجر لخدمته على غرار ما يفعل غيره من الصبيان.

وهو في خدمته (ببطنه) غير مغبون لأن كفاءته في الخدمة لا تتخطَّى أبعد من هذا المستوى في سوق الصبيان.

" –اجرِ يا (أبو طافش) اشترِ ليمونة للزبون من عمك سعيد من قريب".. نعم يشتريها من عم سعيد.. ولكن عم سعيد لا يوجد في الدكان هل يشتريها من غير عم سعيد؟ هنا أكثر من بائع ليمون.. ولكنه لا يحب عصيان عمه.. فلينتظر عم سعيد.. لينتظره ساعة أو ساعتين فطاعة الأمر خير سلوك الأدب.. ربما قلق الزبون ولكن ما علاقته بهذا ما دام عمه لم يأمر بشرائها إلاَّ من عم سعيد.

خذ يا (أبو طافش) أعطِ الطبق للزبون في الركن على يمينك.. ولكن (أبو طافش) لا يعرف يمينه من شماله فيعود بالطبق.. فين يا عمي..!؟.

–يا واد شوف الراجل هناك أبو إحرام أصفر..

ولكن (أبو طافش) من أين له أن يعرف الأصفر والأخضر فلا حيلة في الأمر إلا أن يقف الزبون ليصيح به: أنا هنا يا واد.

ويرسله عمه بعد انتهائه من خدمة الزبائن –"خُذ يا أبو طافش" (الزبدية) اشترِ فيها ربع أقَّة سمن للبيت. فيمشي إلى السمان ويزن له السمن ويفرغه في الزبدية فتستوعبه الزبدية إلاَّ شطراً ضئيلاً بقي في كفة الميزان.. وهنا يتجلّى الذكاء فقد نظر فإذا في قاعدة الزبدية قاع مجوَّف يسع بقية السمن وقبل أن يطول التفكير قلب الزبدية ليتلقى بقية السمن في قاعها المجوف فإذا السمن ملء الزبدية يسبقه إلى الأرض.

فوقف مشدوهاً يتأمل غرابة ما حدث، وتداعت معاني الغرابة في رأسه فرأى أن يتعمق.. فقلب الزبدية ليتأمل جوفها فما راعه إلاَّ السمن يسبقه من قاعها المجوَّف إلى الأرض.

وراعه أكثر ضحكات المستهزئين حوله فاضطرب عليه الأمر.. حاول أن يفهم لِمَ كان للزبدية جوفان؟ وهل من حرج في استعمالهما معاً؟.. وإذا كان فأي معنى لهزء الناس وضحكهم.. اضطرب عليه الأمر فتوترت أعصابه فلم يملك إلاَّ أن يقذف بالزبدية إلى الضاحكين ويعود إلى الدكان ليستوفي مكتوبه فيه.

وأعطاه عمه قطعة استامبولي ذات القرش ليشتري له تنباك كيزرون –"شوف يا واد دكان باصلوح عنده كيزرون زي الكهرم.. ترى لا تجيب تنباك مسود."

ويجري أبو طافش إلى باصلوح الحضرمي فلا يجد عنده الكيزرون إلاَّ المسود فيحتار في الأمر.. ولا تطول حيرته كثيراً فقد سمع باصلوح يحدث أحد الزبائن بأن الكيزرون لم يصل من جدة وفهم من ثنايا الحديث.. ولا أدري كيف استطاع أن يفهم –أن في جدة يباع الكيزرون مثل الكهرم في أكثر الدكاكين فقاده العزم في غير تردد إلى طريق جدة ليثبت لعمه بطولته في الموقف.

انتظر العم خليل أن يعود أبو طافش بالكيزرون وطال انتظاره ثم طال، فقام يتعقبه عند دكان باصلوح فلم يجد عنده ما يشفيه فذهبت به الظنون عشرات المذاهب إلاَّ أن يسوق الذكاء المفرط أبا طافش إلى جدة في شراء الكيزرون.

ومضت يومان عانى العم خليل في دكانه من خدمة الزبائن عنتاً لا يطاق وأشرق اليوم الثالث فإذا أبو طافش يشرق بإشراقته على باب الدكان وقد تأبط لفة التنباك.

–فين كنت يا (أبو طافش)؟ فلم يملك أبو طافش إلاَّ أن تهالك على نفسه في إعياء شديد وراح يروي لعمه قصة التنباك الكيزرون في ألفاظ لا رابط بينها استطاع عمه بما تعوَّد أن يفهم من لهجته الخاصة أن ذكاءه الخارق ساقه إلى جدة في سبيل الكيزرون.

لم يدهش عمه كثيراً لما حدث فقد تعوَّد مباذله الشاذة وأطواره الغريبة المتطرفة ورأى من الخير أن ينسى ما حدث إبقاءً على خدمته المجانية.

ومضت الأيام تتوالى بعدها الأسابيع حتى أقبل العم خليل ذات صباح إلى دكانه الذي تعوَّد أن يجده مفتوحاً مكنوساً، فإذا الباب مقفل وإذا أبو طافش مسجَّى على كرسيه الذي تعود أن ينام فوقه عند الباب جثة فارقتها الروح.

واجتمع الناس على النبأ وتطوع بعضهم فنقلوه وكرسيَّه إلى المستشفى حيث أعلنهم الطبيب موته بالسكتة القلبية.

إلى هنا.. كان الأمر عادياً لا يزيد في مجموعه عن حياة شخص عاش كما يعيش كل غبي مر بالأرض ثم انتهى به أجله إلى حيث تنتهي الآجال بأغبياء الناس وأذكيائهم على حد سواء.

ولكن ما كشفه الموت من فضائح أبي طافش كان من أروع ما تقصُّه نوادر الحكايات والطرائف.

ذلك أن العم خليل ما كاد ينفض يده من تراب القبر الذي وارى جثمان أبي طافش حتى تذكر أن لأبي طافش صندوقاً في مخزن الفحم داخل الدكان كان يجمع إليه ثيابه، فمال إلى شيخ الحارة يسأله رأيه في الصندوق وهو لا يعرف إلاَّ أنه مجاور جاء مكة من قرية في بادية الشام ذكر له اسمها فنسيها على مر الأيام.

وعلى عادة مشايخ الحارة "روح يا بويا اللي زي دا مسكين إيش عنده تعال نفتح الصندوق وإن كان فيه ثياب مقطَّعة نقسمها على روحه وبس.!!"

ومضيا إلى مخزن الفحم في الدكان وعالجا قفل الصندوق فإذا هو مكين متين التركيب بشكل أثار ظنونهما في بلاهة أبي طافش فألهب إحساسهما حتى جاءا عليه بعد عناء شاق.

ولفت نظرهما أول ما لفت أن العمق في جوف الصندوق لا يتناسب مع مساحة ظاهرهُ فارتابا في أمره وتحسسا جوانبه وزواياه بدقة المرتاب فإذا يد العم خليل تصطدم بزر بالغ الصغر حاولاه ليعرفا مهمته في الصندوق فلم يفلحا، وبدا لهما أنه يُقفل بشكل معقَّد على مخبأ سري، فلم يدر بخلدهما إلاَّ أنه ينطوي على نقود، فاشتعل حماسهما بدافع من عامل الطمع وعمدا إلى ساطور في الدكان راحا يضربان به في شدة نبهت إليهما جيران الدكان

فتقاطر الجيران.. ولم تمض بضع ثوانٍ حتى احتشد الدكان بالفضوليين كلهم يسأل ماذا جرى.. ماذا حدث؟

وسرى الخبر إلى أقرب مركز للجندرمة (البوليس)، فخفوا إلى مكان الحادث ليروا أمامهم صندوقاً من الصاج السميك اختلفت أضلاعه من هول الضرب دون أن يكشف مخبؤه عن شيء.

ونُقل الصندوق إلى مقر البوليس، وسيق البطلان خلفه مخفورين، ورأى ضابط البوليس بعد أن سمع أقوالهما أن يستعين على فتحه بأحد الحدادين.

واستولت الدهشة على المجتمعين عندما انفلق المخبأ عن حزمة من قصاصات الصحف التركية وأوراق أخرى مكتوب بعضها بالحبر وبعضها الآخر بالقلم الرصاص.

لئن ذهبت بعض الظنون إلى أن أبا طافش يتخذ في صندوقه مخبأ سرياً معقداً يخفي فيه ثروة يجمعها فإن قرائن الحال لا تؤيد مثل هذه الظنون، فقد عرفوا من بلاهة وعيه ما لا يستقيم مع هذا الوعي، فكيف بهم وهم يكتشفون أن مخبأه السري يُخفي قصاصات مضمومة بعناية إلى جانب أوراق مكتوبة بشكل منظَّم.

تُرى هل عاش أبو طافش يستعمل صندوقه دون أن يعرف عن مخبئه السري شيئاً، أم عاش معارف أبي طافش يتعاملون مع سر مُغلَق يتظاهر بالعيِّ ويتصنع البلاهة ويتقن دوره كممثل بارع؟.

شرع ضابط البوليس التركي –ولعلنا نسينا أن نذكر أن وقائع القصة كانت في أواخر العهد التركي– شرع يقرأ باللغة التركية في أول ورقة صادفها تقريراً يُدين موظفاً تركياً متقاعداً بالعمل ضد الدستوريين في استمبول وأنصارهم في مكة، فلاحت الدهشة على ملامحه وارتسمت بصورة واضحة عندما قرأ اسم المدين وهو شيخ وقور معروف في منطقة باب العمرة ولا يزال يعيش في البيت الذي يجاور دكان السلتاني.

وقرأ في غيرها أسماء أشخاص لا يزالون أحياء يومها كان بعضهم من الأتراك والبعض الآخر مكيِّين كانوا يختلفون إلى بيت الشيخ المتقاعد في أوقات سُجِّلت عليهم تواريخ

أيامها وساعاتها، كما قرأ في بعض الصحف أخباراً عن بعض تنقلات جماعة من السوريين وآخرين من العراقيين كانوا يصلون إلى مكة في أوقات متفاوتة فيتسللون إلى بيت الشيخ لزيارته في ساعات سُجِّلت أرقامها وتواريخها في أوراق مرفقة.

رأى الضابط أنه أمام واقعة حال دقيقة بالغة الغرابة، فلم يملك إلاَّ أن يسجل بها محضراً يُذيله بشهود الحادث، ثم يصرفهم ليرفع به إلى والي مكة المختص فيها بحماية الدستور.

وظل المجتمع بعدها في باب العمرة وفي كثير من مناطق مكة لا حديث لهم إلاَّ بلاهة أبي طافش الذي عاش لا يُحسن جمع أكثر من خمس هللات، ويتعذَّر عليه إذا امتحن أن يعرف شماله من يمينه، أو يفرق بين الأصفر والأخضر؟ ثم تنتهي نهايته بمفارقات يستعصي حلها على الفهم الذكي.

كاد أن ينسى الناس بمرور الأيام والأسابيع أبا طافش وما في قصة أبي طافش من غرابة نادرة حتى فوجئوا في أحد الأيام بأوامر القبض على الشيخ المتقاعد.

وتكشَّفت الحوادث عن القصة فإذا أبو طافش من أمهر الجواسيس الذين خدموا الدستوريين في كثير من بلاد العرب وقد ندبته السلطة ليُحقِّق ريبتها في الموظف المتقاعد، فمثَّل دوره باتِّقان رائع في دكان السلتاني؛ ولكنه ما كاد يعد تقاريره ويشرف بمهمته على النجاح حتى سبقته الجبهة المضادة فكشفته للموظف المتقاعد.

ورأى الموظف المتقاعد أن يتخلص منه، فأطلق في أنفه وهو نائم على كرسيِّه دخاناً مخدراً، جاز أمره على الطبيب المناوب فأمر بدفنه حياً ليلقى حتفه بعيداً في غيابة القبر.

اليتيم المعذب



* * *

إلى الذين يناقشون أخطاء غيرهم في ضوء ما عرفوا من أخطاء أنفسهم أهدي هذه القصة.

–إيش هاذا اللي انت شايله؟

–هاذا.. هاذا شيء ربنا قسم بو.

–أيوه.. لكن ايش هو؟

–هوه.. تسألي ايش هو؟ قولي الحمد لله؟

–أيوه.. لكن برضه ايش هو؟

–والله هو بزره.. ولدتها أمها في الصحية وماتت الأم غريبة.. والبزرة قلبي انشرح لها.. طلبتها من الدكتور أربيها.. ما قصَّر الدكتور الله يجزيه بالخير سلمني هيا.

–بالله ما قصّر أعطاك هيا؟.. الله يجزيك بالخير يا دكتور!! انت بالله راجل هادا طولك! وهادا عرضك! ينضحك عليك.. يعني أحنا ناقصين غلب.. رايح تجب لي غلب فوق غلبي.. صدقوا أهل المثل لما يقولوا: "ما كفاني أبويه راح أبويه جاب أبوه."

*** * ***

قالت هذا وهي تضرب بيدها على صدرها في أسف واستياء، ثم ولَّته أكتافها وهي تُواصل تقريعها في ألفاظ جافية وعبارات قاسية: (قال أعطى له هيا الدكتور ما قصَّر.. إلهي يقصِّر عمرك أنت والدكتور اللي أعطاك هيا.)

لم يأبه الشيخ لجفاء زوجته، ولم يُكلِّف نفسه عناء الاستماع إلى تقريعها الجافي.. فقد دلف إلى مخدعه وشرع يُهيِّئ للطفل مضجعاً فوق (الكرويتة) ويسنده ببعض المخدات.

كان شيخاً تبدو عليه سِمات الصالحين من أصحاب التقوى. كان عف اللسان لا يفلت منه الحرف البذيء، ولا تبدر منه الكلمة إلاَّ في معروف أو إحسان.. كان يعرف سلاطة لسان زوجه، ويعرف من سوء طواياها ما يُثير روحِ الجبان؛ ولكنه كان يؤمن في قرارة نفسه أنها إنسانة تستحق الرثاء والعطف أكثر مما تستحق المقت.

كان يرى أن بعض الأشرار والعصاة والآثمين، وكذلك أصحاب النوايا السيئة في الحياة من الجبابرة، إلى الطغاة، إلى السفَّاكين والقتلة، قد يستحقّون العطف على ما امتحنوا به لملابسات خاصة أكثر مما يستحقّون اللوم.

كانت له فلسفة عميقة في تنشئة الطفل وتربيته وتعويده على ما يتعوّد.. كان يرى أن بيئة الشخص وعادات محيطه مسؤولة في المقام الأول عن جميع تصرفاته في الحياة. فزوجه إذا كانت شريرة أو سليطة اللسان فمن الغبن أن يمقتها.. وجاره الأناني الظالم لا يراه مسؤولاً إلاَّ إلى حد. لأن الملابسات التي صادفته في الحياة هيّأته من حيث لا يشعر لمثل هذا الخلق.. وكان يرى أن اللصوص والقتلة لو صادف نشأتهم تهذيب عادل لتورَّعوا عن سفك الدماء، ووجدوا في أعمق خفاياهم وازعاً دينياً، يهديهم إلى الاستقامة والنبل.

كان يرى هذا الرأي في الحياة. وسواء بالغ في تقديره. أو تجنّى به على تحديد المسؤولية في نظر المشرِّعين فإن حماسه لما اعتنق كان لا يداني.

وتركت هذه الفلسفة أثرها في تكوينه فانطبع عليها، واندمج في تفاصيلها حتى ملكت تفكيره في جميع ما يُصادفه من أخطاء الحياة، وحتى أصبحت أحكامه على مساوىء الناس لا تصدر إلاَّ من هذا المعين.

كان يؤذيه غش المحتالين، ولا يجهل أساليبهم فيضحك ملء نفسه لما يبذلونه من جهود حسبوها تفنناً وبراعة.. وكان يغبنه بعض (الشطّار) فيأسف في نفسه لما فقدوا من تربية ويسأل الله لهم العون.

كان يرتفع عليه الصوت الجريء أو السفيه، فتملك الفلسفة عليه أعصابه وتسمعه يهمس إلى نفسه في صوت خافت (إن صاحبي مسكين فقد عوَّدته بيئته ما تعوَّد.!!(

ويُصادفه عتلٌّ في الحياة لا تضمر طواياه حباً لأحد، ولا يتمنّى الخير للخير، ولا تسمو أخلاقه عن الإثم، أو سوء الصنيع. فلا يلبث أن تعاوده الفلسفة، وتسمعه يتساءل: (تُرى ما هي أنواع الرواسب التي تركت أثرها في تكوين هذا الضعيف، وكم عدد العقد النفسية التي لوت استعداده نحو هذا الطريق)؟.

فهل نستغرب بعد هذا ونحن نراه يصمد أمام زوجه العتية وهي تغلظ له القول: (أنت بالله راجل.. هادا طولك.. وهادا عرضك يضحكوا عليك.. ما كفاني أبويه.. راح أبويه جاب أبوه.!!(

إنه يعلم أنها نشأت مظلومة في بيت أبيها، وأنها كانت تعاني من طغيان امرأة أبيها مما جعلها تشعر بالنقص، وأنها اليوم بعد أن زال عهد الطغيان، وأصبحت سيدة بيتها الجديد تأبى إلاَّ أن تكمل ما كانت تشعر به من النقص بهذا الاستعلاء المقيت، والغلظة الجافية. فهل يلومها على ما جنى غيرها؟ وهل يؤاخذها فيما ليس لها منه بد؟ إنه –فيما تراه فلسفته– ظلم يأبى خلقه العالي أن يرتكب وزره!

فليتغافل –إذن– عن غلظتها وجفائها، وليدلف إلى مخدعه ليهيىء للطفل الذي انشرح صدره له، والذي استوهبه من دكتور الصحة مضجعاً فوق (الكرويتة)، ويسنده ببعض المخدات.

* * *

يا واد انت مين يعرف أبوك؟ أنت رزية.. ربنا رزانا بها في الدنيا وبس.. يعني كان الدكتور حق الصحية اللي ضحك على الشيبة اللي مات الله يرحمه.. وخلاه يشيلك يجيبك عندي

ما قصد إلاَّ أذيتي؟ يعني أنا اليوم اثنا عشر سنة وأنا غاطسه في غلبك!.. تقدر تقل لي ايش الفائدة اللي جاتني من هادا الغلب؟

شوف يا واد.. أنا ما عاد أقدر أصبر أكثر مما صبرت.. بكره أهرج لك عمك أبو فروة يأخذك يشغلك عنده في الحجر والطين لو تجيب حق أكلك، وتريحني من خلقتك طول النهار.

وأعتقد أن القارىء سوف لا يفوته أن (الواد) الذي عزمت السيدة أن ترتاح من خلقته ليس هو إلاَّ طفلنا الذي تركنا الرجل الطيب ينقله من الصحة إلى البيت، ويمهِّد لنومه في مخدعه الخاص فوق (الكرويتة)، كما لا يفوته أن السيدة هي نفسها السيدة التي استقبلته بالجفاء الذي استقبلته به في فصلنا الأول. وقد شاء سوء طالعه إلاَّ أن يحرمه الحنان والعطف، وحسن التوجيه، فقدْ فقدَ الرجل الذي تبنّاه قبل أن يحبو على الأرض، كما فقد أبويه من قبل. وترك لرحمة السيدة العاتية تذيقه من قسوتها ما يسيء عقيدته في الحياة، ويترك في نفسه رواسب لا تمحى آثارها.

نشأ الطفل –ونحب أن لا ننسى اسمه (علوة)– في حجر من لا تختلج فيه عاطفة من الشفقة. وعندما درج في حنايا البيت كانت الغلظة تلاحقه إذا تحرك أو سكن، إذا نطق أو صمت، إذا أحسن أو أساء، فانطوت خفاياه على شعور غامض لوّن له الحياة بلون قاتم لا يلمح فيه ضوء، ولا ينفذ منه نور، وهيّأ له عقله الصغير أنه لا معدى في الحياة من أن نعيش ظالمين أو مظلومين.

علمته مربيته كيف يخضع لجبروتها فرسب في نفسه تقديس القوة بكل ما في القوة من طغيان وعسف، وعلمته الاستهانة بحقارته فانطبع على تحقير الضعيف عن عجز، أو حاجة، أو رِقَّة.

واليوم وقد طفح الكيل وهو يتخطى عامه الثاني عشر، فإن ظروفه الخاصة تسلمه إلى العم أبي فروة ليمتحنه بأقسى ما يتحمله فتى ضعيف، ويضع على كاهله ما تنوء به سنه الصغيرة.

كان المعلم أبو فروة مهندساً معمارياً من الطراز الناجح في مكة، ولم يكن يعتمد في نجاحه ما يعتمده المهندسون من أصحاب الشهادات من أدوات هندسية، وقواعد حسابية، ومعادلات فنية.. بل كانت معلوماته الواسعة في الهندسة تتركّز في عصاه الطويلة التي يتوكأ عليها؛ ويلكز بطرفها حماره القصير الأسود!!

كان كثير من ملاّك الأراضي في مكة يقدسون كفاءته في الهندسة المخاخية، ويعتمدون في مهام أعمالهم المعمارية.

) –يابا.. ايش رأيك في هذه الوصلة الأرض.. نبغي فيها ديوان بشمسة، ومجلسين بمخلواناتها، وصففها، وخزائنها، ونبغي المبيت يكون فوق المخلوان.. قدامه خارجة، ومطبخ؛ ودقيسي كبير شوية.(

ويهز (اليابا) عصاه ثم ينقر بها الأرض كأنه يستوحي عمارها من الجن تخطيطاً يتفق مع أوضاعها، ثم يشرعها ويبدأ في قياس الأرض بها.. إنها وحدته القياسية التي لا تخطىء، فطولها محدود بالذراع والبنان، ومعدلها دقيق المعيار.. إن في استطاعته أن يمسح الأرض بعصاه في لحظات، ثم يفترش الأرض فيسوّي قطعة من رملها بكفه، ثم يخططها بما يشبه الرموز، ثم يستوي واقفاً لينقر بعصاه من جديد ثم يصور الخريطة لزبونه في صفحة الفضاء بإشارات تستوعب مساحة الأرض مستعيناً بعصاه لتقريب الأبعاد، وتحديد مداخل العمارة ومخارجها؛ ومكان الغرف منها.

وكانت شهرة (اليابا) متَّسعة باتِّساع أعماله في نواحي مكة، وكان يشرف على مئات البنّائين في عشرات العمارات، فإذا رجته مربية (علوة) أن يضم (علوة) إلى أعماله في الطين والحجر لتستفيد بأجره اليومي، وتزيح كابوسه الثقيل عن صدرها طوال ساعات النهار، فإن الأمر لا يكلف (اليابا) أكثر من أن ينادي به: (روح يا واد اسأل عن بيت عبد الرحمن عطرجي في الشبيكة، وقل للمعلم سلمان يشغلك عنده حتى أجي.(

واندمج (علوة) في نفر من أترابه كانوا يحملون زنابيل التراب على أكتافهم في صفوف أخذ بعضها برقاب بعض، يهيمن عليها مراقب طويل الهام، صارم السحنة، يهتز في يده حبل طويل مفتول يُلهِب به ظهورهم كلما غدوا بالزنابيل مثقلة أو رجعوا بها فارغة.

لم يكن العسف على (علوة) جديداً فقد ألف هذا اللون من الحياة في بيت مربيته وانطبع تفكيره المحدود بمعانيه القاتمة، فأصبح لا يستغرب القسوة على المهين والضعيف بقدر ما يستغرب الشفقة التي لا يسمع عنها إلاَّ فيما يقصه الأطفال من جيرانه دون أن يعرف مدى ظلها على وجه الأرض.

ومضت الأيام بـ (علوة) طويلة مملّة كان لا ينتهي من نهاره فيها بين العمل القاسي، والشِّدة المريرة، حتى يستقبله بيت مربيته في جفاء أقسى.

وغاب في أحد الأيام مراقب العمل فاستطاع الصغار أن يتلكأوا وراء الحفر، وسمعهم (علوة) يذكرون بركة "ماجل" في أقصى المسفلة ويصفون متعتهم على ظهور الحمير التي استأجروها لنقلهم إليها في يوم له أن يلهو في زمرتهم، وأن يمتطي صهوة حمار مما يركبون، فشاقه الحديث، وراقت له الفكرة، وتمنى لو أتيح له بالثمن، إن مربيته لا تُبيح له قرشاً واحداً من أجره اليومي.

" –انت يا واد إن كان بدي أقعد أحاسبك على اللي صرفته عليك حتى صرت في هذا الطول، أخاف تغرق في الحساب.. حط يا واد فلوس الأجرة كلها في تبسي السموار اللي في الطاقة، ترى أن لقيتها ناقصة هللة.. أهلهل جتتك.. حط الفلوس وتعال غسل النحاس اللي ملموم طول النهار.. شوفو هناك جنب الحنية اخلص قوام علشان تجيب القاز وتفرش الخارجة.. اخلص يا واد لا تنحل قلبي داهية تنحل اللي وراني وجهك في يوم أغبر.

وبذلك لا يجد (علوة) مندوحة لأن يتمتع (بهللة) واحدة من (فلوس) أجرته فهل يجد مندوحة لإقناع مربيته لتمنحه (أجر) ركوب الحمار وفرصة للخروج فيها؟

إن هذا آخر ما يمكن أن يُقال في شأن مربيته، وإنها فكرة لا يصح بحال أن يجرؤ عليها فتى كفتانا (علوة.(

كان يعلم بحكم ما فطر عليه في بيت مربيته أن التماس الحنان، واستدرار الشفقة أساليب يسمعها من صبيان الجيران عندما يقصّون قصص أمهاتهم، أما حقائقها فمعانٍ لم تصافح حياته فيما عاش، وكان يعلم بحكم ما نشأ –أن من حقوق مربيته أن تتمتع بخشونة سطوتها على مثل شخصه الضعيف! وأن عليه أن يحني هامته لكل ما يناله من قسوتها، وأنه ليس له أن يدَّعي لنفسه بجوارها حقوقاً إلاَّ إذا استطاع أن ينتزع لنفسه ما يستطيع انتزاعه اختلاساً، أو تحايلاً؛ أو بأية صورة تتفتَّق عنها ذهنيته الصغيرة.

كان يختلس من قيمة القاز (هللة) واحدة، ومن قيمة العيش والسكر والشاي والفحم ما يستطيع أن يختلسه بصورة لا تترك أثرها.. وكان يحاول ألا يشتري حاجاته إلاَّ من حانوت مزدحم عل أمل أن يزوغ بالبضاعة في غفلة من صاحب الحانوت، فإذا أطبق عليه صاحب الحانوت فلا مانع عنده من استيفاء ما يستوفيه من ضرب، أو شتم، لأن الحياة فيما يصوِّره عقله المحدود لا تعدو أن تكون غالباً فيها أو مغلوباً، فإذا غلبت فما أحلى أن تهنأ بما تهنأ به المربية في البيت، ومراقب العمال بين أكوام التراب، وإذا غُلِبت فما أحرى أن تحني هامتك صاغراً.

وكانت متعته بما يظفر من اختلاس تتجلى في المزامير التي يشتريها.. فينفخ فيها سيالاً من روحه المعذبة لا ينظمها نغم معروف، أو لحن منسَّق، ولكنه يذوب فيه أنين قلب معذب مجروح!!

وكان يجد لذَّته بما يختلس عند بائع البليلة أو (الليم) أو صاحب القثاء الذي يفترش الأرض ببضاعته بين زحمة الصبيان وهو يصيح (شرشوا) فينهال الصبيان على قثائه يلتهمونها مغموسة في إناء الماء المالح الذي يسميه (الشرش.(

كان (علوة) تُغريه شهوة أمثال هذه المعروضات كما تُغري أترابه من الصبيان. ولكن مربيته لا تقنع بمثل هذه الترَّهات فتمنعه (الهللة) الواحدة إذا سولت له نفسه أن يقتطعها من أجره وتذيقه من ألوان الضرب ما لا يحتمله جسمه فتفتقت حاجته عن شتّى طرق الاختلاس، وتعلم بالتدريج كيف يقتطع الهللة والهللات من أثمان السلع الصغيرة التي تكلفه

مربيته بشرائها، واستمرأ هذا اللون بمرور الأيام حتى فقد حساسيته بما يفعل وأصبحت الحيلة لشهواته جزءاً من كيانه.

كانت قهوة (الحمارة) في الشبيكة مجمعاً للحمّارين في أكثر ساعات النهار، وكانت ساحتها الصغيرة تكتظ بعد صلاة العصر من مساء كل يوم بهم أكثر ما تكتظ في بقية اليوم.. كانوا يصفّون حميرهم تحت جدران البيوت القريبة من القهوة يميناً وشمالاً استعراضاً لطالبي الإيجار.

كانوا يخضبون أجزاء من جسمها بالحنّاء في لون وردي جميل، ويحلّون براذعها بأقمشة براقة، ويُنيطون بأعناقها قلائد من الودع أو الفصوص و (الشناشن) التي توسوس كلما اهتزت رؤوسها في إيقاع لذيذ!!

وكان المكارون يدربون الأقوياء منها على الخطو المنظم عنقاً أو شداً، ويعلمونها الطريد في أسلوب لا يختلف كثيراً عن أسلوب الطريد في الخيل، بل إن بعضها كان لا يعجز أحياناً أن يسابق الخيل، كما أن بعضها يحمل من أثقال الركاب ما تنوء به البغال.

وكان متعودو الأسفار بين مكة وجدة يعتمدون أقوياءها في رحلاتهم الشاقة.. فقد كان منها مَن يقطع الرحلة بين البلدين في نحو 8 ساعات، بينما تقطعه الجمال في ليلتين متواليتين قبل أن تعرف قفارنا خطوط السيارات.

كما كان بعضها معداً للمتنزهين في ضواحي مكة البعيدة يستأجرونها من مواقفها في الشبيكة، ويمتطون صهواتها في الأصائل الجميلة من أيام الربيع والصيف.

وكان يوم الجمعة عيد المتنزهين على صهواتها.. تزدحم مواقفها في الشبيكة بطوائف الشغّالين، والعمال، وصغار الطلبة، وأنواع من الطوائف التي تحتفي بعطلة الأسبوع من هذا اللون، وتبذل في متعتها جزءاً مما اقتصدته من أجرتها في أيامه.

وكان لها عدا موقف الشبيكة موقف في خريق المعلاة وغيره في مدخل أجياد، وغيره عند باب الصفا.. يكتظ بالباحثين عن النزهة فوق صهواتها.

ولم يكن لصاحبنا (علوة) عهد بهذا اللون من الحياة. فقد عاش في ربقة مربيته لا يعرف طريق الشارع إلاَّ لشراء أغراضها، ولا يتصل بإنسان إلاَّ ليقضي حاجة محدودة كلَّفته مربيته بها.. أما فكرة العطلة فشيء جديد لم يطرق سمعه قبل اليوم الذي سمع فيه زملاءه من عمال الطين والحجر يلغطون به.. ورآهم يحسنون له مرافقتهم في أصيل يوم الجمعة الذي اتفقوا على قضائه فوق صهوات الحمير.

كان قد اقتصد بطريقته الخاصة التي تعلمها من قسوة مربيته ما يزيد عن العشرين قرشاً.. سرقها من أثمان الحاجيات التي يشتريها لها، واستطاع أن يغيب بها عن البيت دون إخطار أو إنذار.

ورأى نفسه لأول مرة يعتلي صهوة شيء.. أي شيء!! فهزته النشوة أكثر مما هزهُ الحمار، ولذّ له الانطلاق في فضاء الله المتَّسع، وتمتع بأصيل لم يظفر في حياته المجدبة بما يُضاهيه جمالاً ولذة.

وعاد إلى مربيته بعودة الليل يبكي.. قال: "إني رحت إلى السمّان كما أمرتني فلما وزن السمن زاحمني بدوي بكتفه فوقع السمن على الأرض، فأمسكت بالبدوي فضربني، وجرى. فأسرعت إلى مركز الشرطة أشكوه فأرسلوني مع أحد العساكر فقضينا طوال ساعات العصر نبحث عن البدوي فلم نعرف له مكاناً."

لم يكن في قصته حرف صادق. ولكنها كانت قصة محبوكة أتقن الخوف تأليفها، وكان يمكن أن تجوز على مربيته لو أرادت المربية أن تقدِّر درجة الصدق فيما ألَّف. ولكن مربيته لا يعنيها الصدق في أعماله بقدر ما يعنيها الربح والخسارة منها، فإذا خسرت اليوم السمن الموهوم فإنها خسرت إلى جانبه ساعتين أضاع الولد في أثنائهما خدمة البيت، وترك أعماله معطلة.. ولا يعوِّضها ويشفي أساها من ذلك إلاَّ (علقة) حامية تُدمي أطرافه وتُنهِك جسمه.

وتلقى (علوة) (علقتها) بأطراف ألفت (العلقات)، ومرنت أحاسيسه على آلامها كما مرنت أحاسيس فقراء الهند على تعذيب أجسامهم بما لا يحتمله جلد. وأصبحت تجد من غرائب اللذة فيها ما لا يصدقه عقل.

واستمرأ (علوة) عادة النزهة التي تعلمها فوق ظهور الحمير، واستهان في سبيلها بكل الصعوبات التي كان يتخيل أنها لا تُحتمل فأصبحت ديدنه في كل أسبوعٍ يُلفق في سبيلها ما يصادفه من تلفيق، ويختلس من أجلها ما تقع يده عليه دون أن يُبالي بفداحة ما يرتكب!! وكيف يُبالي؟ وهو اليائس الذي فقد العدل، كما فقد الحب. وأصبحت الحياة لا تعدو في نظره المحدود أكثر من ختل لا يظفر فيه الضعيف، إلاَّ إذا وطن نفسه على مثل المكاره التي يلقاها من مربيته القاسية، والتي وطن نفسه بمرور الأيام عليها.

* * *

لم يظفر (علوة) في حياته المريرة التي كان يعيشها في بيت مربيته، أو بين عمال الحجر في مكان شغله براحة تُسِره إلاَّ في العصاري التي كان يختلسها للنزهة مع رفاقه فوق صهوات الحمير، أو في الساعات القليلة التي كان يكلفه فيها (اليابا) بتوصيل المقاهي إلى بيته في "دحديرة" جبل أبي قبيس.

كان (اليابا) يعيش مع زوجته التي أشرفت على الشيخوخة، وفتاة لها لم تنهد في صدرها أثداء، وخادم أثقل السن واللحم على عجزها، وتركها قعيدة في المطبخ كأنها صندوق عتيق ضخم لا يريم شعرة عن مكانه أمام (الكوانين).

كانت الزوجة ربة البيت، ورئيسة جاراتها في الزقاق، وكبيرة على كل من يعرفها من أول "الدحديرة" الصاعدة في جبل أبي قبيس إلى نهاية العمران قبل قمته العالية. كما كانت مسؤولة في نظر نفسها أمام جميع الملمّات الهامة التي تلمُّ بأقربائها، ومن يلفُّ لفَّهم من معارف مهما شطَّ دار أحدهم أو بعد.

كانت صديقة المرضى في كل البيوت التي تعرفها أو تسمع بها، وكانت حَفِيَّة بكل من يحتاج إلى معونتها رغم إمكانياتها الضيقة، وكانت تشعر بإحساس عميق بالميل إلى بر ومساعدة الضعيف في حدود طاقتها.. وعندما كان (علوة) يتردد على بيتها يحمل زنبيل "المقاضي" كانت تلمح بعض معاني البؤس ينطق بها محيّاه فلا تملك إلاَّ أن تخفي في

صدرها زفرة مكتومة، وتتمنى لو استطاعت أن تتغلغل إلى نفسه لتعرف خفاياه.. ولكنها كانت لا تجرؤ، خشية أن تتفتَّح لها آفاق تُسيئها، ولا تقوى على علاجها.

وتبيَّن لها بمرور الأيام أن مقاضي الزنبيل لا تصل إلى بيتها في مقادير تتساوى مع ما تعرفه من مشتريات زوجها. وأن حبات الموز أو المشمش يبدو فيها أثر النقص فأدركت بإحساسها أن يد (علوة) تمتد إلى الزنبيل لتشبع حرمانه من الفواكه، أو تسد جوعه وما كانت تعلم أن قسوة مربيته واستئثارها دونه باللذيذ الطيب علَّمه الاختلاس.. وأنه بعد أن حذق فنون الاختلاس مما تأمنه عليه مربيته من أثمان مشترياتها، أصبح يستطيع أن يشبع رغبته من كل فواكه السوق بثمن ما يختلس من دراهمها، ولكن طبيعة الاختلاس كانت تأصلت في نفسه، وهيأته القسوة للثأر لضعفه من كل قوي.. فمرن على الختل، وحذق فنونه، وشعر أنه منقاد إلى معانيه انقياد الشاعر الفحل إلى ما يسبق لسانه من معاني الشعر.

ما كانت ربة البيت لتعلم هذا أو تفهمه.. فلم يتبادر إلى تفسيرها إلاَّ أن (علوة) يُشبع جوْعته، أو حرمانه من الفواكه التي يحملها إلى بيتها. فراضت نفسها الكريمة على تحمُّل ما يسيء.. وكانت تعلِّل لزوجها أسباب النقص إذا شعر به.. بأنها تستوفي نصيبها من الفاكهة، كانت تفعل هذا إيثاراً لمثل هذا الصنف الجائع المحروم؛ وتشعر في قرارة نفسها بارتياح لا يعدله حرمانها من لذَّة الفاكهة.

واستمرأ (علوة) هذا الاختلاس، ولم يستيقظ ضميره المتبلِّد لسوء ما يفعل.. كما أبت طيبة ربة البيت أن تعاتبه أو تتركه يشعر بأنها تفهم ما يختلس، وكان إذا بدا على ابنتها أو خادمتها أنهما أدركتا النقص سارعت ربة البيت إلى تعليل الحال بما يسكتهما وإن لم تقتنعا، وأمرتهما ألا يفصحا عن مثل هذه الظنون أمام زوجها؛ فكانتا تطيعان ما تقول براً بشمائلها الكريمة.

وكان (علوة) لا ينتهي بزنبيل المقاضي إلى بيت (اليابا) حتى يتشاغل بما يؤخِّر مقامه في البيت ويحاول أن يشارك الفتاة بعض أعمالها التافهة، أو يُعنى بصفِّ عرائسها وينظم الخرز عقوداً للعرائس، ويُضيِّع الوقت في ترتيبه، وتبويبه فإذا طال غيابه عن (اليابا) اعتذر له

بخدمات تكلَّف بها في بيته.. وكانت الأم تصادق على ما يخترعه عنها لأنها لا تمانع في سرها بما تظنه استجماماً.. يغتنمه أمثال (علوة) من عناء أعمالهم التي لا تحتملها أجسامهم الذابلة.

ولكن (علوة) كان منقاداً إلى معاونة الفتاة الصغيرة بشعور مبهم لا يتبين معانيه.. فقد كان قدَّها الرشيق، وأعطافها الدقيقة، ونظراتها الساهية تستهوي عواطفه في غموض لا يفهم تفسيره.

وكانت الفتاة على صغرها لا تجهل مركزها من (علوة)، وتقدِّر حفاوته بعرائسها.. ولعلَّها كانت تشارك أمها في العطف على إنسانيته المعذبة في شعور صامت لا تفهم من معانيه حرفاً.

وطالت الأيام على مثل هذا النسق في بيت (اليابا) ثم انقطع (علوة) عنه فجأة وغابت أخباره عن العائلة، وسئل (اليابا) عنه فلم يعرف شيئاً، وأرسل إلى مربيته العجوز فذكرت: أنه ترك بيتها إلى غير رجعة، وأنها دائبة البحث عن مقرِّه دون جدوى.

*** * ***

كانت شؤون الأمن بين المدنيين في هذا العهد الذي تجري فيه حوادث روايتنا –أواخر العهد العثماني– مسؤولة من قومسير البوليس الذي يُعيِّنه والي الحجاز التركي في مكة، أما شؤونه في أطراف المدن والبادية فكانت مسؤولة من شريف الأتراك، أو رجال الجيش منهم.. فإن الوالي التركي يندب العدد الكافي منهم لإقرار الأمن الذي يحاول إقراره بالبندق، والمدفع، ولهذا كان الأتراك يكثرون من إنشاء الحصون والأبراج على طول الطرق ويوكلونها إلى حراس أشدّاء يتناوبون الإقامة فيها، كما أن شريف مكة كان يبذل بحكم مكانته بين القبائل، وسطوة حرسه الخاص (البواردية) ما يمكن بذله في سبيل الأمن، ولكن شؤون الأمن بالرغم من هذا أو ذاك كانت مثلاً عالياً للفوضى والعبث.

ولعلي لا أبعد كثيراً إذا علَّلت أهم أسباب العبث والفوضى بتوزيع المسؤولية في البلاد بين حاكمين كانا يتنازعان الاختصاص في أوضاع غير محدودة، ومسؤوليات غير مركَّزة.

فالدولة العثمانية كانت تولي أمر الحجاز أحد أشراف مكة من البيت القديم الحاكم فيها.. ومع هذا كانت لا توليه ثقتها الكاملة.. بل تندب إلى جانبه من يمثِّل سلطتها من الأتراك في وظيفة (والي) ليُشرِف على شؤون المال والإدارة والأمن.. فيرتبك شأن الإمارة وتضيع الحدود بين صاحب الإمارة وصاحب الولاية، ويتعذَّر معرفة المسؤول الأول عن شؤونها. ولو وكلت أمر أحدهما إلى الآخر لتركزت المسؤولية، وتحددت الاختصاصات.

لم يوكل أمر أحدهما إلى الآخر.. فأباحت لهما تنازع الاختصاص.. لذلك كانت أمور الرعايا تتراوح بين السلطتين، وكان في استطاعة القوي منهما أن يوسع دائرة نفوذه على حساب الآخر، وأن يفرض شكيمته في البلاد دونه.. فلا غرابة أن يعبث العابثون في بحبوحة هذه الفوضى، وأن يستغلوا فرصة تنازع الاختصاص لصالحهم.

كان بعض أشراف مكة لا يتورَّع عن تشجيع بعض العابثين.. ليُثبت للقصر العالي في الآستانة عجز الوالي، وعجز دوائره البوليسية، والدفاعية عن إقرار الأمن.. كما أن بعض ولاة الأتراك كان لا يبالي بتمرُّد العابثين إلاَّ إذا كانوا من قبائل توالي بيت الشريف ليثبت لمراجعه في الآستانة أن منشأ الفوضى بيوت الموالين للأشراف. ولذلك كان بعضهم يتكلَّف الإغضاء عن كثير من حوادث السرقة ليحصر جهوده في حوادث خاصة يرى أنها تستطيع إثبات علاقتها ببيوت الأشراف.

بذلك ضاع الغرض السامي من إقرار الأمن في البلاد، وحل محله تربص المتنازعين على الحكم للدسيسة ضد بعضهما.. ولهذا وجد العابثون بالأمن ميداناً واسعاً لأعمالهم.. فكانت بعض القبائل تعبث بأمن الطريق، فينطلق عسكر الوالي في أثرهم حتى يظفر بهم في القليل، أو يشردهم في الأكثر ليستأنفوا عبثهم في مناطق أخرى.

وكان بعضها يفرض الأتاوات على الحجاج فيدفعونها صاغرين، ثم يصل الأمر إلى شريف مكة فيزبد ويرعد ثم لا يفعل إلاَّ ما يفعله الأتيكيت، أو يصل إلى الوالي فيأمر جنده بالكر والفر، وإطلاق البنادق في أعقاب المعتدين.. فلا يظفر إلاَّ بما يُسكت الرسميين وإن لم يقنعهم.

وكانت مكة إلى جانب ذلك ممتحنة بطائفة من السرقة والنشالين استطاعوا أن يبرعوا فيما امتهنوا براعة نادرة المثال في تاريخ أمثالهم.

وقد اشتهر منهم في هذا العهد الذي نقصُّ حوادثه:

"أبو سعيد –أمين جاوي –حامد مخربش –عبد الرحمن عورة –الدنكاشي –وكثير غيرهم."

كان بعضهم يراهن على نشل ما في جيبك. ثم لا ينتهي حديث الرهان حتى تكون محتوياته قد انتقلت إليه دون أن تشعر، وكان بعضهم ينذرك لتتحصن ضد عدوانه، ويعين لك الساعة التي يسطو فيها ثم لا يخلف إنذاره رغم جميع الاحتياطات التي تحاولها.

وكانوا مع هذا معروفين بأشخاصهم لدى المسؤولين والأهالي، ولكن ذلك لم يمنعهم من العبث لأن فكرة إقرار الأمن في البلاد لا تشغل رؤوس المسؤولين في بيت الشريف ومركز الوالي بقدر ما يشغلها العمل لسياستهما المتضادة.

كان الأهالي يقولون –وقد ظلوا إلى وقت طويل يقولون– إن الدولة العثمانية رحيمة!.. ولكنها لم تكن رحيمة بقدر ما كانت مهملة.. ولم يكن إهمالها يصدر عن عجز بقدر ما يصدر عن غرض.. كانت دبلوماسية ممثِّلها التركي، تقتضيه أن يفسح صدره للعاتين، وأكثرهم في مكة من الحجاج وبعضهم من الأهالي لئلا يهيئ أعداء من كل صنف، وبحسبه أن يتربَّص الفوضويين ممن يشتبه في موالاتهم أو قربهم للأشراف ليُضيف ذلك إلى أدلَّته ضد الأمير دون أن يبالي بالغرض الأساسي من تعيينه في مثل هذا المنصب!!

ولو استطاع أن يتفق أصحاب الإمارة، وأصحاب الولاية على إقرار الأمن للأمن لما عجزوا عن تحديد المسؤولية وإيقاف العاتين عند حدودهم!

وقد ظلت ذيول المأساة إلى عهد طويل بعد جلاء العثمانيين من الحجاز.. فإن الملك حسين الذي استطاع أن يستقل بأمره في الحجاز ضرب بيد من حديد على جميع العاتين والسرقة في مكة، ولم يعجز عن قطع دابرهم فيها.. وقد فعل قريباً من هذا في كثير من المدن؛ ولكنه عجز عن تأمين جزء هام منها أخصه في طريق المدينة.

وتلك هي ذيول المأساة فإن الحسين كان يخشى تمرد القبائل القوية التي كانت تعيش مدلَّلة في عهد العثمانيين وأن يسري هذا التمرد إلى جيرانها فتسوء العاقبة. فحاول أن يداريها بالقسوة مرة والرأفة أخرى، وهو يؤمل أن يصل على مر الأيام معها إلى نهاية حاسمة، ولكن الأيام جلته قبل أن يقضي أربه منها.

ويبدو هذا واضحاً في معاملته مع غير القبائل القوية وشذَّاذ اللصوص في المدن من جميع الألوان الذين لا تجمعهم عصبية واحدة، فإنه حزم أمره في شأنهم دون أن يبالي، واستطاع أن يقضي بحركة واحدة على جميع أعمالهم.

لم يسترسل الفصل السابق بنا في غير مجرى حوادث قصتنا، فإنه بحث كان لا بد منه لاستطراد قصة (علوة) الذي كنا رأينا قسوة مربيته تعلِّمه الاختلاس وتدفعه في حركة لا شعورية إلى مهاوي الحياة، والذي رأيناه ينقطع فجأة واحدة من بيت (اليابا) ويغيب عن بيت مربيته؛ ويتركها تدأب في البحث عنه في غير جدوى.

لم يولد (علوة) منحرف الأخلاق أو مستقيمها، وإنما وُلد كما تولد العجائن اللدنة قابلاً للتكيُّف والصيانة.. وأكبر ظني أنه لو مدَّ في حياة مربيه الأول الذي استهداه من دكتور الصحة.. لهيّأه المربي لما كان يعرف من ألوان الصلاح، وبثَّ في روحه هلاماً طاهراً يضيء اتجاهه ويهديه الصراط السوي.

لكن القضاء فجعه فيه، ووهبه سيدة لا ينبض في فؤادها حنان، ولا يومض في حناياها بصيص من عطف.. ولقد كانت صادقة كل الصدق في أول يوم دخل الطفل فيه بيتها عندما ضربت بيدها على صدرها وأعلنت زوجها استياءها في ألفاظ جافية وعبارات قاسية.

كانت صادقة لأن هذا الصنف لا يضمر أصحابه بما جُبِلت عليه قلوبهم إلاَّ أسوأ ما يضمره الحقد والشر.

فلا غرابة أن تقسو في معاملته رضيعاً، وصبياً، وغلاماً، ولا غرابة أن تؤثِّر القوة في معنوياته اللدنة وتهيئ منه إنساناً لا يؤمن بالخير في الحياة لأن في الخير حروفاً لم تطرق سمعه حين نشأ؛ ولم يصادفه من معانيها ما يدله على مظانِّها في الحياة.

نشأ (علوة) منساقاً –بعوامل لا يفقه كنهها– إلى الثأر من الحياة.. في أشخاص من يواتيه الظفر بهم، فكان لا يتورع عن اختلاس أو ختل أو سرقة ما يستطيع فيه الاختلاس، أو الختل، أو السرقة.. وكأنه بهذا يريد أن يضيف إلى ثأره في الحياة ريّاً لروحه الظامئة من طول ما أرهقه الحرمان.

وإنه لماضٍ في طريقه ذات مساء في منعطف من دروب أبي قبيس إذ صادفته فتاة صغيرة السن تحلّي جيدها بقطعة ذهبية راقه بريقها، وقدَّر لها ثمناً صالحاً للتوسعة على شهواته فلم يتكلَّف أكثر من أن يدنو إليها ويربت على كتفيها فيما يشبه الحنو، ثم يترك يده الأخرى تعالج عقدة الحلية في هدوء، ثم يسلم رجله إلى الريح قبل أن تنتبه الفتاة الصغيرة إلى ما حدث.

ومضى من فوره إلى زقاق الصاغة على أمل أن يبيع الحلية قبل أن يتنبَّه أصحابها إلى فقدها، ولكن القدر كان مخبوءاً له على كثب منه في شخص (بصّاص) سري لاحظ ارتباكه فقبض عليه، فتلعثم؛ فقاده إلى جاويش تركي في أقرب نقطة حيث استجوب فاعترف بسذاجة اللص البدائي.

*   *   *

قدَّمنا في فصل سابق أن شؤون الأمن في مكة كانت مسؤولة في بعض نواحيها من أمير مكة على رأس حرسه و (بوارديته) إن كنا نذكر البواردية –وهم نوع من الحرس كان يتكلَّف بإحضار الخصوم إلى بيت الشريف في مجلسه أو قائم مقامه في دهليز البيت– كما كانت شؤون الأمن في نواحٍ أخرى أهم مسؤولة من والي مكة يمثِّله فيها قومسير للبوليس على رأس ثلَّة من الجند (الجندرمة)، وكانت أعمال الجندرمة في البوليس شبيهة إلى حد ما بأعمال (البواردية) في بيت الشريف.

وكان يتبع البوليس (بصَّاصون) مختصّون بالرقابة السرية يتعقَّبون المجرمين في أثواب مدنية، ومع هذا فقد كانوا غير مجهولين بأشخاصهم وأسمائهم من المتوطِّنين في مكة.. أما معتادو الإجرام فكانوا وثيقي الصلة بهم وكانت إشارة واحدة من أحدهم إلى البصاص كافية

لإفساح الطريق أمام إجرامهم.. لهذا كانت أعمال المجرم العاتي لا يشوبها خطر إلاَّ إذا اختلف مع البصّاص أو أساء معاملته.

وكان فتانا (علوة) أصغر من أن يحذق شيئاً من هذه الأسرار، لهذا كان لقمة سائغة للبصّاص عند أول خطوة أراد أن يخطوها في جد.

لم يشفع له سنه لدى (البصاص) كما لم تنفعه سذاجته أمام ضابط البوليس، وأمام القومسير فيما بعد، وليس هذا خطأ حكَّام الترك وحدهم.. لأن دراسة النفوس الملتوية فكرة لم يتناولها نظام خاص في كثير من شعوب الأرض.

وأعتقد أن الحياة سيدميها السير طويلاً قبل أن تنتهي إلى اليوم الذي تشعر فيه بحاجتها إلى هدم أكثر آرائها في علاقة المجتمع بالمجرمين.. فليس الإجرام فيما أعتقد أكثر من مرض له أسبابه السيكولوجية وأعراضه التي تتنوَّع بتنوُّع جراثيمه الخاصة.. فإذا استطاع العلم في أحد الأيام تشخيص حقائق المرض، واستطاع أن يتتبَّع أنواعه التي لا يحدها حصر، وأن يتعقَّب الجرثومة المتأصلة في حقيقة كل نوع على حدة.. فسوف لا يعجز عن علاجه بغير الطريقة التي اعتادتها الحياة إلى اليوم.. وعندئذٍ سيبدو مقدار تعسفنا في امتهان المجرمين، وتسرعنا في الأحكام على أعمالهم قبل التثبُّت من دوافعهم إلى الإجرام.. ورحم الله خليفتنا الفاروق الذي أبى أن يعاقب السرقة في سني المجاعة، فقد كان أغزر دراسة لأركان الجريمة من ملايين الحكام الذين افترضوا خصومتهم للمجرمين دون أن يكلفوا أنفسهم النظر في دوافعها الحقيقية.

وفتانا (علوة) أحد ضحايا هذا الافتراض الظالم.. فقد نشأ في بيت عطَّل أحاسيسه بما يفعل، وترك عقله الصغير يحدد علاقته بالمجتمع في إطار ضيق أغراه بالختل، وعلمه الاختلاس ودرَّبه عليه دون أن يشعر حتى ألِفه.. والإنسان عبد لما ألِف.. فإذا ساقه سوء الطالع إلى طريق (البصّاص)، ثم إلى موقف الحاكم. فهل نأمل من (البصّاص) أن يشفق على ضعفه؟ أو من الحاكم أن يُكلف نفسه دراسة الدوافع الحقيقية إلى الإجرام؟

إن في هذا من التكلُّف في نظر الحياة اليوم ما لا يتَّسع له مدى عاقل.. أما السبيل الطبيعي المتفق عليه فليس سوى الامتهان الذي يليق بأمثال هذا البائس.

إذا كان بعض الموهوبين قد هداهم العلم إلى حقائق كبيرة درسوها في نفسيات المجرمين.. فأولئك قلة في أطراف الأرض لم تعترف حكوماتهم بآرائهم إلى اليوم، في الغالب الأعم، اعترافاً رسمياً يؤهل درجها كقواعد في أنظمة الحكم، وإلا لهدمت تلك الحكومات جميع سجونها، وأقامت على أنقاضها مستشفيات تعالج فيها أعتى المجرمين، كما تعالج الأمراض المستعصية، وتُعِدُّ لهم بفنونها حياة تؤهلهم للاستقامة والشرف.

* * *

سيق (علوة) إلى سجن القلعة على كتف الجبل المعروف في أجياد، فلم يتألم إحساسه لما ناله من امتهان وصفع، وشعر في قرارة نفسه أنه إذا خاب اليوم في صفقة مع الحياة، فلا يجب أن يجزِع لقسوتها.. لأنه سيقسو إذا ظفر بعد اليوم دون أن يعتد بآلام غيره إذا تألم.

سيق إلى السجن فاستقبل فيه طوائف من البشر كأنها النحل تطن بين خلاياه.. كانت كل طائفة تتجانس في مستواها، تحتل غرفة من عشرات الغرف المتزاحمة حول ردهة السجن، فمضى يرود الخلايا غرفة بعد أخرى، لعله يأنس إلى ظل يقيه الشمس، حتى انتهى إلى سقيفة نائية مهجورة في طرف ناءٍ من السجن.. فأوى إليها في جسم متهالك ولم يبرح مكانه منها حتى اقترب منه أحد المسجونين:

–واد أنت قاعد هنا لحالك ليه؟

–والله يا عمي أنا محبوس.

–طيب موكلنا محبوسين زيك.. بس هادي وصلة عفنة شوية.. ما أحد يقعد فيها.. شوف الغرف التانيه ادخل أي واحدة منها، واجلس.

–ما أعرف أحد يا عمي.

–أنت من أهل مكة.

–ومتى حبسوك؟

–دوبهم.

–وليش حبسوك؟

–كدبوا علي وقالوا سرقت من الولد الصغير ريال مغربي كان لابسه في حلقه.

–وأنت ما سرقته؟

–لا والله يا عمي.

–ومين أهلك؟

–ما عندي أهل.

–كيف يعني، طلعت مزروع في الأرض؟

–واحدة هناك ربتني.. حرمة في البيت ولا عندها رجال.. ولا تدري إني انحبست.

–طيب ما أحد راح قال لها؟

–لا والله.

–طيب وأنت أكلت ولا لسع؟

–ما أكلت.

–وعندك فلوس؟.

–عندي واحد مجيدي وعشرة قروش.

–خليهم معاك وتعال كل معنا لقمتين.

ومضى به السجين إلى الغرفة التي تحتلها طائفة. وكانت تضم نحو ثمانية أشخاص ظنهم لأول وهلة من رؤساء السجن، لما رأى من نظافة ثيابهم ووجاهة الفرش المبسوط في غرفتهم.. كان أحدهم يتكيء على حشيّات نظيفة من القطن.. وقد عقد الدخان سحاباً كثيفاً من سيجارته في جو الغرفة، وجلس اثنان في ركن آخر من الغرفة على وسائد ليِّنة يلعبون (الضومنة).. بينما تفرَّق غيرهما في أركان أخرى من الغرفة يتبادلون الحديث أو يقتلون الوقت في لعبة (الانن.(

كان نظام السجن في هذا العهد من أرفق أنظمة السجون في العالم، إذا قيست تقاليده بتقاليد غيره.. فقد كانوا يبيحون للسجين أن يرتدي ملابسه الخاصة، وأن يستحضر لأكله ما شاء من طعام، ولنومه ما شاء من فرش.. ولمّا كان السجن في العادة لا يخلو سجناؤه من طبقات تختلف باختلاف مراكزها وغناها، فقد كانت كل طائفة تجتمع إلى طائفتها في غرفة خاصة لتشترك فيما تستحضره فيها من طعام أو شراب.. فأصحاب الغنى متميِّزون بغناهم، كما هو الحال في المتوسطين والفقراء.

ومن العادات المتَّبعة في السجن: أن أغنياء المسجونين تصلهم الأطعمة من بيوتهم في كميات وافرة، تفيض على أمثالهم عدة مرات، فكانوا يطعمون بعضها، ويوزعون أكثرها على المعتقلين في غرفهم الأخرى.. لأن السجن لا ينفق على هؤلاء الفقراء إلاَّ في القليل النادر.

وكان السجناء الأغنياء لا يستغنون عن خدمات زملائهم من الفقراء في سائر أغراضهم في السجن.. وبذلك يجد البؤساء مورداً طيباً يُهوِّن عليهم لأواء السجن، ويحمل عنهم مصائبه!!

وقد وجد (علوة) في الرجل السجين وأفراد طائفته ما أغراه بالبقاء عندهم رهن خدمتهم!

واختلط (علوة) بكثير من نزلاء السجن في الأسبوع الأول لدخوله السجن، وكان بحكم صغر سنه، يستطيع التنقل بين سائر الغرف دون حَرَجٍ من أصحابها.. فقد كانوا يُكلِّفونه بكثير من خدماتهم داخل السجن، فيمضي فيما يكلِّفونه بنشاط لم يعهده فيما كانت تكلِّفه به مربيته من قبل؛ ولعل ذلك كان نتيجة لعدم شعوره بروح الكراهية التي كان يشعرها في بيت مربيته، أو لأنه أدرك أن ما يجمعه بزملائه في السجن، أقرب كثيراً إلى معاني التفاهم من جامعته بغيرهم.

وزاد اختلاطه بهم بمرور الأيام، فكان يستمع إلى قصصهم، وينصت في عناية إلى رواية البطولة في أحاديثهم.. هذا فذ في سطوه، وذاك حكيم في نشله، وأولئك من المعدودين في فن العبث بسلطان الدولة.. صور لا يحصيها العدد، تمثِّل في مجموعها ألواناً من حياة الإجرام مطبوعة بطابع الفروسية القديمة.

استمع (علوة) إلى عشرات القصص وعشراتها من هذا النوع فتأثرت نفسيته الضعيفة بروعة ما فيها من بطولة زائفة، وتعشَّق أمجادها الكاذبة، وتمنى لو أتاحت له الأيام أن يقفز إلى صفوف المعدودين في طلائع الإجرام.

وعرف في السجن مجرماً من عتاة اللصوص كانوا يدعونه (أمين جاوي) وكانوا يكبرون فيه سطوته، ويتحدثون عن نوادره في الجرأة والبسالة.. فأُعجب بمميزاته كما تحدثوا عنها، وهاله فيه القوام الناهض، والنظرة الثابتة، والمحيّا الناطق بالقوة والتحدي.

وبدا "لأمين جاوي" أن الفتى (علوة) أحد المعجبين به، فحنا عليه حنو الكبار، وكان يربت على كتفه مشجعاً كلما سمعه يروي حكايات مقته على مربيته، أو ينعى قسوة الأقوياء على الضعفاء في الحياة.

وتوثَّقت الصلة بين فتانا وأستاذه.. وكان الأستاذ نابغة في فنون النشل، فلم يبخل على تلميذه بدروس طويلة تعلم فيها أفانين النشل، وحَذِق ألاعيبها وكثيراً من حيلها.

* * *

كانت قهوة العم سالم تحتل بناءً واسعاً في أعالي خريق المعلاة، بجوار مسجد الجن قبل أن يمتد العمران بشكله الحاضر إلى ذلك الجزء، وكان يدير أعمال القهوة فيها كهل من أمهر أصحاب المقاهي في مكة، وأكثرهم عناية بالروّاد، وأشدُّهم حزماً على خدمه ويقظة لجميع وسائل النظافة في مقهاه.

كان روّادها في أمسيات أيام القيظ الشديد يتمتعون بمائه البارد المعطَّر، قبل إنشاء معامل الثلج في مكة.. فقد كان يصفُّ قِلال الماء –ونسميها رباعي– بالمئات في مكان استراتيجي من مقهاه يتعرض لهبوب الريح، فلا يكاد رائده يحتل كرسيه بين (المراكيز) المصفوفة، حتى يصيح الصائح (ربعي يا وليد) في صوت مجلجل لا ينتهي من آخر مقطع فيه، حتى يكون (الربعي) قد وصل إلى (الطرابيزة)، وبدأ الظامئون يطفئون حرارة القيظ من مائه البارد المعطَّر.

ويتوالى مجيء الطلبات في سياق مطَّرِد، لا أثر فيه للتلكؤ، لأن صاحب المقهى على كثب من عماله فيها يتبع حركاتهم دون أن تطرف له عين.

وكانت مساحة مقهاه من أوسع المساحات في مقاهي مكة، وأنقاها هواء.. وكان لمقهاه سطح مشرف يعد إلى جانبه الساحة الواسعة حيث يتوسَّد النائمون كراسي نظيفة يجدون فيها متنَّفساً مما ضاقوا به في بيوتهم، كما يجدون وسائد وأغطية لا تقل في نظافتها عن سائر موجودات المقهى.

وكان خدمه يحرسون نوّام المقهى في ساعات الليل بالتناوب، دون أن يجرؤ أحدهم على التراخي، أو يخل بواجبات ما وُكِّل إليه من عمل.

وفي إحدى الليالي، وبينما كان زبائن المقهى قد توسَّدوا كراسيهم الطويلة، واستغرقوا في سُباتهم إلاَّ نفراً قليلاً في أحد الأطراف البعيدة من المقهى كانوا يهزجون ببعض أغانيهم البلدية في أصوات هادئة، إذا بضجَّة ترتفع في طرف آخر من المقهى وبصوت صارخ يتهدج: (حرامي.. حرامي.. امسكوا الحرامي)، فاستيقظ أكثر النوّام على صوت الصارخ، وجرى بعضهم إلى مصدر الصوت، وتبعهم الحرس فتقاطروا مسرعين للنجدة.. ثم علا الصخب، وكثُرت الضجة، وجرى بعض خدم المقهى يحملون فوانيسهم إلى مكان الضجة، فرأى المجتمعون في ضوئها شبحاً هزيلاً يتسلل بين الكراسي؛ ثم يعدو في خفَّة القط إلى الحائط بجوار المقهى يُطِل على قبور المعلاة فيتسلقه ثم ينحدر إلى القبور فيضيع أثره بينها.

وتحمس الحرس، ورجال من رواد المقهى، وبعض حملة الفوانيس فتتبعوا أثره وراء السور حيث رأوه ينحدر؛ فلم يجدوا له أثراً.. وفتشوا بعض القبور التي وجدوها مفتوحة فضاعت جهودهم هباء.

وعندما عادوا إلى المقهى علموا أن الشبح استطاع أن ينشل كيس النقود من بين مخدّات النائم وكان فيه مبلغ من (المجيديات) وبعض القطع الفضية (الاستانبولي).

وعلم صاحب المقهى بما حدث في الصباح، فشدَّد عقوبته على الحرس، وفصل بعضهم، وأضاف غيرهم بعد أن أوصاهم بالحرص. إلاَّ أن جميع الترتيبات ضاعت هباء، لأن شبح الليلة البارحة عاد مرة أخرى إلى الظهور، واستطاع أن ينشل نائماً آخر، ثم يذوب وراء سور القبور.

وعلم صاحب المقهى بالأمر، فاشتد حنقه على اللص الساخر، وحلف ألا يغادر مقهاه من ليلته حتى يكشف الأمر؛ ويعرف سر ذوبانه بين القبور.

ورأى أن يبدأ فحصه في ضوء النهار.. فاكتشف بين القبور المهجورة قبراً يتصل قاعه بسرداب صغير سُدَّت فوهته بحجر ضخم، وأزاح الحجر، فرأى السرداب لا يزيد عن حفرة تتَّسع لجلوس رجل ضئيل الحجم.. فأدرك أن اللص يتخذ مخبأه عندما يذوب بين القبور في هذه الحفرة التي يغطي فوهتها الحجر..

فإذا تعقَّبه الساهرون، ثم افتقدوا أثره بين القبور اكتفوا بتفتيش القبور دون أن يرعى انتباههم حجر متروك في قاع أحدها. لأن قياع القبور لا تخلو مما تحدَّر إليها من الأحجار المحيطة، ولأن أضواء الفوانيس لا تستطيع الكشف عما خفي وراء مثل ذلك الحجر.

وبذلك استطاع صاحب المقهى، عندما استأنف اللص عودته من ليلته الجهيدة أن يترصَّده بجانب الحفرة، وأن يضع يده عليه في يُسر وسهولة.

وسيق اللص في زفَّة صاخبة إلى نقطة البوليس في سوق المعلاة.. وبدأ يستقبل اللطمات من كف المفوَّض التركي في النقطة.

ولو استطاع القارىء أن يهتك الأستار عن حقيقة اللص، لأدرك أنه صاحبنا (علوة)، وعرف أنه لم يكمل مدة السجن المقررة، حتى استطاع أن يحذق كثيراً من الحيل التي تعلمها من أستاذه في السجن (أمين جاوي)، وأنه لم يغادر بابه حتى كان قد وطد عزمه على العمل لنفسه، ولنفسه فقط، بين مجتمع لا يظفر فيه إلاَّ الغالب.

كان أستاذه يرى في الحياة آراءً لها خطورتها.. كان يعتقد أن اللصوصية بمعناها الصحيح لا تقتصر على جماعة محدودة سمّاهم الناس لصوصاً، بل هي حالة متأصلة في جميع

الطبقات دون استثناء إلاّ في القليل الشاذ.. فالعميل المحتال، والتاجر المستغل، والمتموِّل المخادع، والوجيه المنتفع بوجاهته بطرق لا تقرُّها النزاهة، والقوي المستفيد من قوته في قضايا يعلم زيفها، ومالك الأرض أو معمِّرها الذي يضيف ببعض حججه الكاذبة قيراطاً يعرف أنه لا يملكه.. كل هؤلاء، وأنواع من أمثالهم، أكثر خطراً منهم على الإنسانية، يجب –في رأيه– أن يُضافوا إلى اللصوص، بل يُدرجوا في أوائل قوائمهم.. ولكن العرف التقليدي تغاضى عن حقائقهم في كبرياء وتضليل، بل مضى إلى أبعد من هذا فكلَّل جهود الممتازين منهم بأكاليل من الغار، وسمَّى بعضهم أبطالاً، وأهداهم من النعوت ما يغري!! بينما اضطهد غيرهم، وألصق بأوصافهم ما جرَّدهم من معاني المروءة والشرف.

فسارق الزهر مذموم ومحتقر

وسارق الحقل يُدعى الباسل الخطر[2]

وجدت هذه الأفكار الخطيرة سبيلها سهلاً إلى نفسية (علوة) الناقمة على أوضاع الحياة فتركت أثرها فيه، وأعدَّته للشر، أكثر مما أعدَّته مربيته في تربيتها المنحرفة.. فلم يغادر سجنه حتى كان قد وطَّد عزمه على ما وطَّد.

وقادته رجله إلى السجن بجرمه الجديد، ولم يمضِ على مغادرته أسبوع، فاستقبله في تبلُّد وبرود.. ولعله سُرَّ بلقاء أستاذه في الغرفة التي تركه بها.

* * *

وقبل أن يمضي يومان على دخوله السجن، أسرَّ أستاذه إليه أنه بالاشتراك مع بعض الزملاء قد قرروا الهرب وأنهم دبَّروا لذلك خطة محكمة لا ينقصها إلاَّ التنفيذ العاجل، وأن في استطاعته إذا أراد الاشتراك، أن يُعِدَّ نفسه للتنفيذ في ساعة متأخرة من الليلة الآتية. فسُرَّ

---

(2) - قلت (سرمد حاتم شكر) : وهو من شعر جبران خليل جبران ، من قصيدة يقول فيها :

وَالعَدل في الأَرض يُبكي الجِنّ لَو سَمِعوا ... بِهِ وَيستَضحكُ الأَموات لَو نَظَروا

فالسّجنُ وَالمَوتُ لِلجانينَ إِن صَغُروا ... وَالمَجدُ وَالفَخر وَالإِثراء إِن كبرُوا

فَسارق الزَّهرِ مَذمومٌ وَمُحتَقَرٌ ... وَسارِقُ الحَقل يُدعى الباسِلُ الخطِرُ

وَقاتِلُ الجسمِ مَقتولٌ بِفِعلَتِهِ ... وَقاتِلُ الرُّوحِ لا تَدري بِهِ البَشَرُ.

(علوة) لعناية أستاذه به وشاركهم فيما دبروا، واستطاعوا معاً بفضل الخطة المحكمة التي نظموها أن يجدوا أنفسهم طلقاء قبل أن يلمع الفجر.. إلاَّ أن سوء طالع (علوة) قاده من حيث لا يدري إلى (خريق المعلاة)، حيث لمحه الجندي الذي صحبه إلى السجن في جريمته الأخيرة، ولما أراد أن يستوقفه ليتحقق أمره أسرع (علوة) يطلق العنان لساقيه؛ ولكن الجندي –وكان من العدّائين قبل الجندية– استطاع اللحاق به قبل أن يفلت.

وسيق مرة أخرى إلى السجن بعد أن ضوعفت عقوبة سجنه، وأُدرج اسمه من جديد في (قوائم) العتاة من أصحاب الإجرام.

وكانت وطأة السجن عليه في هذه المرة أشد مما عرفها من قبل.. فقد آلمه نجاح رفقته دونه، كما آلمه فقد أستاذه الذي كان يأنس إليه، ويجد في صحبته ما يخفِّف عنه وحشة السجن.

ولم يطل ألمه كثيراً فقد جمعته الصدف بسجين من طلبة العلم كان كثير القراءة، كثير الصلاة، فاستهواه ترتيله الجميل لآيات القرآن، وخشوعه الطويل على مصلاه كلما حان وقت الصلاة. فآثره بتقديره، وتوافر على خدمته.. وعندما علم أن جريرة الشيخ في السجن لا تعدو تهمة كيدية، شعر نحوه بعاطفة من الميل لم يشعر بها نحو غيره من قبل.

وأحس الشيخ بميل (علوة) إليه فبادله حباً بحب، ثم سمع قصصاً من حياته فعرف موطن العلَّة في تربيته وأدرك بواعث الحقد والكراهية التي تأصَّلت في أعماق نفسه.. فأغرته بالجريمة، وعلَّمته من ألوان الشر ما حسبه يفي بثأره في الحياة.. فوطن عزمه في سره على تتبُّع موطن الداء من نفس الفتى، وأن يحتال حتى يستأصل الجرثومة من موقعها، ويحل ما تعقد حولها من طحالب.

لم يواجه الشيخ فتاه بما كان من آثامه في الحياة، أو يحاول تسفيهه، وتشنيع خطاياه.. وإيراد ما يناسب المقام من صيغ الوعّاظ ليُقيم الدليل على فحش ما جنى خشية أن يستثير أنانيته وعناده.. بل تناسى جميع جرائره وآثامه، وتحبَّب إليه حتى ملك عليه عواطفه ليستطيع أن يوجِّه قيادهُ في أناة ولين من حيث لا يدري.

حتى إذا تمَّ له ذلك عمد إلى شرح نواحي الخير والشر في الحياة.. في أسلوب لا يمتُّ بصلة إلى ما اقترفه (علوة) فيها. ليكون البحث عاماً لا علاقة له به من قريب أو بعيد، وكان يدلِّل فيما يشرح بما يحضُره من أقاصيص أخَّاذة أو فكاهات مُسرية، فكان الفتى يصغي بكل جوارحه إلى حديثه الطريف، ويستحثُّه ليواصل ما قطع منه، ويستعذب روح الفكاهة فيما يقص عليه من حكايات.

وكان يزيد في عجب (علوة) مدى الفرق بين ما عرفه عن حقائق الحياة التي استقاها من بيئته الخاصة، وبين ما تكشَّف له من آفاق جديدة فيما يحدثه الشيخ.. فكان الشيخ يُدرك وجه تعجُّبه، ويتطوع بالتفسير.

–(أنت يا (علوة) ما شفت الدنيا إلاَّ من جهتها السوداء.. قست عليك اللي ربتك، وقسا عليك اللي اشتغلت معاهم في الحجر والطين، وما وجدت واحداً في طريقك من أهل الخير، فظننت الدنيا كلها كدا أهل شر، لكنك لو واجهت الدنيا من جهة ثانية كان شفت أنه فيها كمان بياض يفتح النفس، وشفت أناساً من أهل الخير تتعب أناساً من أهل الخير).

وكان الشيخ يشفع نظرياته في الموضوع بقصص لأهل الكرامة والنبل ومحبي الخير في الحياة، فيترك (علوة) يحس بحقيقة جهله، ويزداد تعجبه من تصوراته الخاطئة التي كان يرسمها لذهنه عن حياة الناس.. وبذلك تحلَّلت العقدة في أعماق (علوة) وبدأت آفاقه تتَّسع لنظريات الشيخ.

واستمر الشيخ في ترويض (علوة) بأسلوبه الحكيم الهادىء، حتى تعشَّق (علوة) بمرور الأيام مبادىء الشيخ وتمنى لو أُتيح له الانطلاق ليصافح الحياة من جوانبها البيضاء، ويبحث عن وجه الخير فيها.

*** * ***

وعندما انتهت أيام سجنه وأسلموه إلى الباب.. تنفس الهواء الطلق ملء رئتيه، ومضى في خطوات ثابتة يتلمس الحياة من جانبها الأبيض.

كان قد عول على طرق أبواب العمل الشريف، فأخذ سمته إلى طباخ كان يعرف دكانه في القشاشية بجوار البريد القديم، عسى أن يجد لديه عملاً يقيم أود حياته الجديدة.. لكن الطباخ ما كاد يسمع طلبه حتى عرف فيه (شقياً) قديماً، فأشاح بوجهه دون أن يُجيب بحرف واحد.

ترك دكان الطباخ وأخذ طريقه في انكسار إلى مقلاة للحمص كانت على خطوات منه، فلم يكد يرحب به صاحب المقلاة، حتى تذكر أنه عرف الشخص قبل اليوم، فاستدرك الأمر بطرده من الدكان.

وخيَّم الليل على (علوة) وهو في طريقه يذرع الشوارع والدروب، ويتسكع بين الدكاكين علَّه يجد من يقبله في عمل، أو يسأله لشغل، حتى دبَّ التعب إلى أعصابه، وأنهكه الجوع.

وكان يملك من دنياه (مجيدياً واحداً)، استبقاه في جيبه من النقود القليلة التي كان ينفحه بها بعض أصحاب الخير في السجن فاشترى منه بعض العيش والتمر، وعوَّل أن يواصل سيره إلى أحد المقاهي في الخريق ليأكل مما اشترى وينام على أحد أسرة المقهى إلى أن يوافيه الصبح.

إلا أن صاحب المقهى ما كاد يلمحه حتى تذكر قضيته ليلة حادث السرقة التي اختبأ بعدها في القبر المهجور، فأبت غيرته لزبائنه أن يقبل نومه عنده، فطرده في قسوة واضحة، وفعل مثله صاحب مقهى آخر، حتى أبت جميع المقاهي في الخريق قبوله لديها، لأن أصحابها كانوا قد علموا جميعهم في ليلة الحادث بما جرى قرب مقاهيهم من مكان الحادث.

فمضى به الدرب بأسوأ ما يمضي فيه إنسان كسير القلب مكدود، ولقد ساورته أفكاره القديمة عن آرائه القاتمة في الحياة؛ ولكنه صمد، وأبى إلاَّ أن يواصل الجهد حتى يصافح الحياة المشرقة التي بشَّره الشيخ بحقائقها.

وعادت به قدماه إلى حيث أتى، فلما انتهى إلى القشاشية، دلج إلى المسجد الحرام، فأدّى فريضته كما تعلمها من الشيخ، ثم بسط طعامه فأكل ما استطاع مكدود مثله أن يأكل،

ثم افترش (إحرامه) حيث كان، وأراد أن يهجع، ولكن الشرطي المكلَّف ما كاد يراه مضطجعاً. حتى أمره بالجلوس، أو مغادرة المسجد، لأن النوم ممنوع فيه.

وحاول الجلوس فأبى النوم ذلك عليه. فغادر المسجد إلى القشاشية مرة أخرى، ثم دلج يصعد في الأزقة الضيقة إلى جبل أبي قبيس.

ولم يصل إلى قمته حتى كان التعب قد أرهق مفاصله فأوى إلى صخرة في القمة، وافترش (إحرامه) لينام فأقضَّ مضجعه نباحٌ عالٍ، ونظر فإذا عدد لا يحصى من الكلاب تطارد ذئباً بين مخارف الجبل، وحقَّق نظره فإذا الذئب يختفي بين شغاف الصخور القريبة منه، بعد أن ضلَّت الكلاب سبيلها إليه، ووقفت على عدوة مما اختفى توالي النباح في أصوات مزعجة.

وجفاه النوم، واشتد به القلق، وأحس أنه على كثب من خطر الذئب الكامن وراء الصخور. فابتعد عن المكان ما أمكنته قدماه المرهقة، وحاول النوم من جديد. ولكن القلق كان قد زاد الكرى عن أجفانه المثقلة، وسمع أصوات الكلاب تدنو نحوه، فأيقن أن الذئب قد غادر مخبأه إلى حيث يطارده الكلاب، فوجف قلبه خوفاً؛ وازداد اضطرابه.

وكانت ليلة ليلاء قاسى من أهوالها ما لا يحتمل، وعز عليه أن يظفر فيها بهدوء أو راحة.

*** * ***

واستأنف سعيه من الغداة بحثاً وراء الرزق. فاستطاع بعد عناء شاق أن يجد عملاً في أحد مصانع النوْرة، وكان ترتيبه في المصنع سياقة الحمير الموثَّقة بأكياس النوْرة من مصنعها وراء جبال أبي لهب إلى مركز بيعها في حارة الباب من مكة، فصادف ما لا يحتمل من وصف الجري، والانغماس في حفر النورة واستنشاق ذراتها الحادة على من لم يألف العمل فيها. ولكنه كان قد اعتزم الثَّبات؛ وآلى على نفسه أن يروِّضها في حياته الجديدة.

واستمر يتخذ مأواه كل ليلة من مكانه المختار في قمة أبي قبيس، وبعد أن قطع الكلاب دابر الذئب الذي يرتاد المخارف فيه، فكان ينعم بمرقده الخشن يؤرقه نباح الكلاب العابثة في آفاق الجبل؛ ثم لا يلبث أن يغزوه النعاس.

وظل على أمره في ذلك أياماً.. استطاع في أثنائها أن يُشبع حاجته إلى الطعام، ولكنه توجَّس شراً قبل أن يتمَّ أسبوعه الأول، لأنه لمح رجلاً كان يعرفه من رواد مقاهي الخريق يطيل النظر إليه وهو يفرغ وسقة من النورة في دكان البيع، ثم رآه يتجه إلى المشرف على البيع في الدكان، ويُسِرُّ إليه في صوت خافت كلاماً أحسَّ أنه يعنيه، فوجف فؤاده واضطرب.

وصوَّر له خياله أن ماضيه بات مكشوفاً منذ الساعة لأعمامه في العمل فتوجَّس الشر، وبات ليلته في أسوأ ما يبيت حزين مهموم، كان يقول في نفسه: أمن العدل أن أعاقب بجرائر ساقتني إليها ظروف كنت أجهل مقاومتها؟ وإذا كان الله قد شمل التائبين بعفوه، فما بال عباده يناصبونهم العداء، ويغلقون أمامهم، أبواب الحياة؟

وتلقى في صباح اليوم التالي أمر رئيسه بترك العمل، ولم يتورَّع الرئيس أن يضيف إلى أوامر الطرد بعض النصائح: –يا واد ما دام انت حرامي وردِّ حبوس جي تمتحنا بنفسك ليه؟.. روح شوف عينك زي اللهبة من أول يوم جيت عندنا.. هيا روح أقلب وجهك.

وصعَّد (علوة) زفرة أودعها كل آلامه وقال:

(يا عمي أنا كنت حرامي.. ولكن تبت، وعاهدت ربي ما عاد أسرق أحد.. والله يا عمي أنا فرحت بالشغل اللي لقيته عندك، وقالي عقلي يا واد ما دام الحالة ماشيه كده تقدر تنسى كل شيء، وتبتدي تمشي مستقيم في الدرب الجديد زي الناس المهديين).

ولكن العم صاحب المصنع، أبى أن يقتنع بأمثال هذه الكلمات، ورأى من الخير لمصنعه أن يحتاط بإبعاد من توجَّس فيه الشبهة، ونسي في مثل هذا الحال أن واجبه كإنسان أن يُسدي إلى مثل هذا البائس فرصة جديدة إلى الحياة البريئة التي يتوق إليها.. وتلك حالنا في الحياة، كانت ولا تزال تعد الآثمين، والخاطئين، والجاهلين لأسوأ معاني الإجرام.

لم يتكلف صاحبنا أمام هذه التوسُّلات أكثر من نظرة يشيع فيها الازدراء والاحتقار.

–تروح يا واد.. وإلا أزهم لك العسكري؟

وبذلك راح (علوة) ولم يرح.. لأن أقدامه ساقته إلى دروب طويلة كان لا يعرف وجه الطريق فيها: أما روحه فكان لا يدري أتركها على كثب من مهابط المصنع، أم اصطحبها معه بين متعرجات الدروب الضالة.. ذلك لأن شعوره فقد الفهم والحساسية.

وطوى يومه وليلته لأن جيبه لا يحوي ثمن رغيف يُشبعه، ثم أرشد إلى مكان التكية القديمة في المسعى فزاحم حتى نال رغيفاً وشيئاً من (الشوربة) فسدَّ جَوْعته، ثم طوى يومه وليلته حتى ظفر بمثلها في صباح جديد، وظل أمره على ذلك أياماً كان لا يتبلَّغ فيها إلاَّ وجبة واحدة ينالها كل صباح من مبنى التكية.

وراودته نفسه بسؤال الناس ولكنه كان يزجرها، ويُحسن الصبر لها لتكفِّر عن أخطائها فيما مضى.. تلك الأخطاء التي كان يشعر في قرارة نفسه أنه لا رأي له فيها.

وعوَّل على أن يبحث عن معلمه القديم (أبو فروة)، لعله أن يقبل ضمَّه إلى عماله في البناء ولكنه ما كاد يسأل عنه حتى علم أنه فارق الحياة. وكاد أن يسوقه الحديث إلى السؤال عن زوجه الصالحة، وابنته الجميلة.. ولكنه آثر أن لا ينكأ جروحاً قديمة بذكريات كهذه وأن يبعد ما استطاع عما يشتمُّ فيه روائح الماضي.

ووفق له عمل في ذات يوم بين عمال الحجر، ولكن العمال ما فتئوا أن عرفوه فوشوا به.. فلم يتركه صاحب العمل يتمُّ يومه.. فاستأنف البحث عن غيره، وغيره. حتى اشتغل عند سمّان، ونجّار، وحدّاد في أيام غير متعاقبة. فلم يفلح في الدوام عند أحد.. لأن ماضيه الكريه كان يأبى إلاَّ أن يتعقَّبه حيث اتجه.

واشتغل خادماً في أحد البيوت فطرده صاحب البيت بعد ساعات من التحاقه عنده، وصادفه تاجر فأْتمنه على شيء من بضاعته يتجول بها ثم علم بعد يومين بأمر ماضيه فلم يقبل بقاءه لديه.. فظل على أمره أياماً طويلة.. ولكن عزمه مع هذا كان قد توطَّن على الجَلَد وآلى ألا ينحرف مهما بلغت به المعاناة.

*** * ***

ومضى به الثَّبات إلى غاية طويلة سمع في نهايتها إنساناً يحدثه عن مدينة جدة وسهولة الكسب فيها، فلم يفكر طويلاً فيما سمع، بل اصطحب أول جمّال رآه يغادر جرول إلى طريق جدة، وساير جمَّاله ماشياً على قدميه بعد أن تزوَّد ببعض التمر والعيش.

وهداه تفكيره في جدة إلى الاستغناء عن (إحرامه) وثوبه والاكتفاء (بسرواله) فلم يتوانَ فيما فكر.. بل سلمها إلى أول مشترٍ نقده فيهما ثلاثة (مجيديات).

وقصد من تَوِّه إلى حلقة الخضار فاشترى بضاعة من الكرّاث بجميع ما يملك ثم انتحى إلى ناحية من الطريق فقسَّمها إلى حزم، وانطلق ينادي في الصباح الباكر معلناً عن بضاعته بصوت عارم أودعه كل آماله في الحياة.

وأحصى نقوده في نهاية اليوم فوجد أن مجيدياته أوشكت أن تتضاعف، فشجعه هذا على استئناف العمل، وإضافة شيء من الليمون إلى بضاعة الكرّاث.

ودام عمله في الكرّاث والليمون أياماً وجد في نهايتها أن نقوده تتَّسع إلى إضافة نوعٍ أو نوعين، فلم يتلكّأ في المزيد، ولم يبخل بجهده فيه.

ووجد مع الأيام زاوية صغيرة تنحرف في رأس زقاق يطل على أحد الشوارع الرئيسة فاحتلها ببضاعته، واستطاع أن يعرض بضاعته فيها على أنظار المارة، وأن يستغني عن التجوُّل، فدرَّ عليه ذلك أخلاف الرزق، وشهد الناس من طيبته وسماحته ما حبَّب إليهم معاملته فكانوا يفضلون قضاء حاجاتهم منه، وجرَّبه أصحاب البيوت القريبة فثبت عندهم حدبه على الصغار الذين يرسلونهم لقضاء ما يحتاجون منه، وبرّهم بأصنافه الطيبة، وتعفُّفه عن الغش والمغالطة، فساروا بسمعته إلى كل من يعرفون حتى بَعُدَ صيته، واشتهر في حيِّه الواسع بمعاملته الصادقة.

وتوسعت أعماله بعد عام قضاه في تجارته الجديدة، واستطاع أن يضيف إلى أصنافه حتى تعدَّدت الأنواع في دكانه، وتفاقمت أرباحه.

وطالت إقامته في جدة.. أما أصحاب السوابق من الآثمين والمجرمين فكانوا يجدون في بيته الواسع الذي بناه في ضاحية البغدادية مأوىً يلوذون به كلما أحوجتهم الحاجة أو مسَّهم الجوع.

وكان أصحاب البيوت المجاورة له في البغدادية يرون عنايته بالأشرار ولا ينكرون ما يرون تقديساً لما شاع عندهم من خلاله العالية، وبرِّه الذي كان لا يقصره على عالم من الناس دون آخر!!

وعندما اتَّسع حاله تذكر موطنه الأول في مكة، ونازعه إليه الحنين فاقتنى في بيته دابة خصصها لرحلاته إلى مكة كلما استفزه الشوق إليها.

وكان لا يمكث في مكة طويلاً لأنه كان يتحاشى الوجوه القديمة التي تعرف ماضيه، ويحاول ألا يظهر أمام أحد من معارفه هرباً من الفضول.

ونازعه الشوق في إحدى روحاته إلى مكة إلى العائلة القديمة التي كان يرسله عمه أبو فروة لخدمتها في البيت، وتذكر عطف سيدة البيت، كما تذكر عيني ابنتها النجلاوين فساقته قدماه إلى دارهما في زقاق الجبل وراء الصفا.

وقابلته الفتاة بسرور واضح، وقادته إلى أمها المريضة على سريرها فعلم منها أنهما افتقرا بعد موت عائلهما أبي فروة، وأنهما باتا يخشيان أن يفرق الموت بينهما قبل أن تُبنى الفتاة على شاب يضمن لهما الهناء والسعد.

وتراءت له في الحال فكرة خطوبة الفتاة فلم يتردَّد كعادته في حزم الأمور، وتقدَّم إلى الأم في شأن ذلك بعد أن ساق إليها ما جهلت من فصول حياته، وأنبأها بنتائج الظفر التي بلغها، فوافقت الأم ولم تعارض الفتاة فانتقل بهما إلى بيته في جدة وعاش سعيداً معهما.

*** * ***

ووقف على دكانه في أحد الأيام زبون كانت أسماله البالية تنمُّ عن فقر مدقع، فلما حقَّق (علوة) فيه النظر، عرف في أسماله زميلاً قديماً من زملاء السجن، فخالجته الشفقة في

شأنه، وأبت مروءته أن يتقاضى منه قيمة ما اشترى.. فكان لشفقته رد فعل كلفه ثمناً غالياً في الحياة.

وأطال الفقير نظره إلى (علوة) في دهشة المتعجّب، وحاول أن يعرف في ملامحه شخصية مرت به قبل اليوم، فلم تسعفه الذاكرة. ولكنه أيقن أنه يعرف هذه الملامح، وتمنى إلى (علوة) أن يساعده فيما نَسي. فتخابث عليه وأبى أن يكشف عن شخصيته لزميله القديم حياء من إذاعة سر لا يشرِّفه في محيطه الجديد.

وتردَّد الفقير على دكان (علوة) استدراراً لعطفه. فكان (علوة) لا يبخل بعطاياه الطيبة. بصورة أغرت بطول الترداد، واستطاع الفقير بمرور الأيام أن يعرف قصره في البغدادية، كما استطاع أن ينضمَّ إلى بعض البؤساء الذين تشملهم حسنات الدار؛ وتجمعهم مائدته في أكثر الأوقات.

وعرف من زملائه حقيقة (علوة) كزميل قديم، فاستغرب أن يواتيه الحظ في مثل هذا اليسر النادر، وكَبُرَ عليه أن تبخل الأيام على مثله بما يغني حاجته إلى الطعام والمأوى.. وتلك أحاسيس تثير الحسد بما في الحسد من مشتقّات.

وليس غريباً أن يشعر هذا الصنف من الناس بمثل هذه الأحاسيس المُمِضَّة كنتيجة لحرمانهم وقسوة الناس عليهم، فقد كان (علوة) نفسه يتعذب بمثل هذا المرض قبل أن يصادفه الشيخ، ويُعنى به، ويشفي مركَّب النقص في أعماقه بوسائله العلمية التي أحالته من مجرم آثم يجدِّف على الحياة ويتمنى هلاك من فيها، إلى إنسان جديد.. يتعشق خير الناس؛ وينبض فؤاده بحبهم.

ولو صادفت بائسنا الجديد مناسبة تهيَّأ له فيها اختصاصي من أطباء النفوس لاستطاع بوسائله أن ينتزع جرثومة الشر، وأن يبذر في مكانها ما استطاع أن يبذره الشيخ في أعماق (علوة) من بذرة الخير!!

فرح الفقير باهتدائه إلى حقيقة (علوة) التي كان يحاول إخفاءها حياء من بيئته الجديدة، فأراد أن يستغل هذا الحياء إلى أبشع حدود الاستغلال.. فواجه (علوة) بما فهم من حقيقته،

وأردف بأنه سوف لا يتخلى عن كتم سره! حرصاً على سمعته! ما ظل (علوة) يبره بما يصلح شأنه بين الناس.

ولم يأبه (علوة) في أول الأمر بما لوَّح به الفقير، كما أنه لم يمانع في إسداء المعونة إلى إنسان يعاني مثل هذا البؤس.. إلاَّ أن المعونة أبت أن تقف عند نهاية تحدها.. لأن أطماع الفقير كانت تتطور كلما تطورت الأيام.. حتى باتت أقرب إلى الضرائب منها إلى معاني الإحسان، كما تطورت أرقامها إلى مقادير فاحشة.

وعندما غضب (علوة) لكرامته، أبى الفقير أن يُداهن عواطفه الثائرة.. فقد كان يشعر أنه يتقاضى أقل مما يستحق ثمناً لصون شهرته مما يشوبها في نظر الناس، وأبى (علوة) أن يعترف باستخذائه لما يضمر الفقير.. فكانت الجفوة، وكان الكره.. ورؤي الفقير بعدها يولي ظهره إلى (علوة) وقد لاحت على محيّاه معاني الغدر الذميم!!

وشاعت في جدة على أثر هذه الحوادث قصة أرملة غنية.. سطا عليها أحد اللصوص فاغتالها، ثم سرق مدَّخراتها من المال، والنفائس، دون أن يترك وراءه أثراً ينمُّ عليه. فنشط رجال المباحث في البوليس للتحقيق في الحادث.. فلم يتبيَّنوا ما يُنير لهم التحقيق، فاستاء قومسير الجندرمة، وأعلن بين مشايخ الحارات ووكلائهم عن مكافأة سخية لمن يُرشد إلى ما يضيء التحقيق.

وفي ذات مساء، استأذن الفقير على قومسير البوليس.. فلما أذن له، قصَّ عليه ماضي (علوة)، وما كان يشوبه من شوائب.. ثم قال "وهو اليوم يرأس عصابة من أخطر اللصوص يسرقون ما تناله أيديهم ثم يأوون إلى بيته.. ليقسِّم بينهم ما سرقوا، ويحتفظ لنفسه بالنصيب الأوفر وقد حاورني أحدهم للانضمام إلى عصابتهم فأبيْت، وأخبرني هذا عن حكاية سطوهم على الأرملة، واغتيالها، وسرقة مدَّخراتها من حلي ومتاع، ونقله إلى بيت (علوة) توطي لاقتسامه.. وفي استطاعة حضرة القومسير أن يتأكد من حقيقة (علوة) التي أرويها في دفاتر البوليس في مكة، وأن يأمر بمهاجمة البيت ليجد متاع الأرملة مختبئاً في أي مكان خفي منه!

ولم يتسرَّع قومسير البوليس قبل أن يتحقَّق من شخصية (علوة)، فاستدعى شيخ حارته ليتعرَّف منه على هويته بصورة سرية.. إلاَّ أن شيخ الحارة خيَّب جميع الظنون التي خامرت القومسير في شخص (علوة)، وأكد تأكيداً لا يقبل الجدل: أن (علوة) مثل نادر للاستقامة والشرف، وأن مبالغته في الإحسان إلى المعوزين، وفيهم المتشرد والآثم وإفساح بيته لإيوائهم، هي عيبه الوحيد إذا صح أن في الإحسان عيباً.

وأظهر القومسير لشيخ الحارة مبلغ اقتناعه بما زكّى به (علوة)، بعد أن حذَّره شديد الحذر من إفشاء حرف واحد مما سمع، فخرج شيخ الحارة مطمئناً إلى نتيجة ما دافع به، ولم يبح لنفسه أن يفشي شيئاً مما حدث براً بما وعد.

وانتدب القومسير بعد هذا من تحرّى حقيقة (علوة) في دفاتر البوليس بمكة.. فانتهت إليه النتائج بأنه لص سابق تعود الإجرام، وأنه غافل الحراس في إحدى المرات وهرب من السجن ضمن عصابة من زملائه، يرأسهم (أمين الجاوي) المشهور بجرائمه في مكة.

انتهت هذه النتائج إلى بوليس جدة، وليس في منطق البوليس من أي لون كان أن يصيخ إلى غير ما تنطق به صحائف السوابق.. لأن توبة المجرم فصل لم يدرَج إلى اليوم في قواميس البوليس.

وفي ذات أمسية من أمسيات جدة المشرقة بإشراقة القمة الساطع وكان (علوة) قد ارتفق حافة نافذته المطلة على البحر المترامي، يشرف منها على الأمواج اللامعة تحت ضوء القمر، فاجأه دخول أحد الخدم:

"عمي.. يا عمي (علوة).. إن فلاناً الفقير أسرَّ إلى عم جمال الطباخ بأنه رماك عند البوليس بتهمة القتل، وأن البوليس لا يلبث أن يقبض عليك."

–طيب روح انفلق أنت وهو.

وقبل أن يروح الخادم (لينفلق)، ترامى إلى سمع (علوة) دمدمة خافتة وصلت إليه من النوافذ الخلفية المطلة على باب القصر، فأسرع إلى النافذة يستوضح الأمر.

* * *

قال الخادم يحدث طباخ القصر، بعد أن استولى البوليس على ما في القصر رهن التحقيق، وطرد منه جميع الخدم.

) –والله يا عم جمال.. أنا شفت عمي (علوة) وهو يجري إلى المخلوان في الساعة اللي كان البوليس بيهاجم فيها القصر.. ولكن فين راح بعدها ما أدري.. فص ملح وداب.. دخل البوليس إلى كل غرفة فلم يجد له أثراً، ودخل حتى في المخلوان فلم يجد له أثراً.. ما أدري إن كان له باب سري خرج منه.. لكن فين هذا الباب السري؟ ما أدري.. ما فهمته أنا ولا قدر البوليس يفهمه.

*** * ***

وبذلك أُسدل الستار على الرجل التائب، وضاع في غمرات الحياة كضحية لما نسميه (صفحات السوابق).

ورؤي (علوة) بعد سنوات من الحادث في مدينة من جزر جاوا، يصاحب أستاذه القديم (أمين الجاوي)، الذي علمه بعض فنون اللصوصية في السجن!! فهل عاد سيرته الأولى؟؟

–إذا صح هذا فمن المسؤول؟؟

أبو ريحان السقا



* * *

كنا نشهده ونحن مصعِّدون في ضحوة النهار المبكر إلى مدرستنا (الراقية) على كتف جبل هندي. (1)

نشهده في أغلب أيامنا منحنياً تحت قربته (الشعارى) الكبيرة ينقل خطاه في تثاقل تحت وطأتها متوكئاً على عصاه القصيرة كأنها رجل ثالثة أرادها ليُخالف بها من يمشي على رجلين أو على أربع.

وربما بلغ أبو ريحان منتصف "الدحديرة" الصاعدة إلى جبل هندي قبلنا، فيقف إلى دكة هناك هيأها السقاةُ لراحتهم، وهي على ارتفاع خاص يسامت ظهورهم إذا وقفوا إليها وجعلوها كمحطة تستريح عليها "قربهم" لبينما تهدأ أنفاسهم من عناء التصعيد؛ ثم يستأنفون صعودهم.. إلى بيوت الجبل.

وكنا شلة من صغار الطلبة تجمعنا الشقاوة وحب العبث بعم ريحان دون جميع السقاة الصاعدين أو الهابطين في جبل الهندي.

كان أبو ريحان يمتاز بقربة تتعدَّد ثقوبها بشكل غريب فلا تفتأ ترش الشارع خلفه وجميع ما يتصل بالشارع من مشاة أو بضائع تحتل الطريق أمام دكاكين أصحابها.

وكان من عبثنا أن ننتظر عم ريحان آتياً من "بازان الشامية"، يحمل قربته الرشاشة.. ننتظره في مطلع الجبل إلى جوار دكان هناك كان يفترش جزءاً من الشارع ببضاعته.. حتى إذا أقبل وقف أحدنا لاصقاً بالحائط وفي يده شيء من النبق ماداً يده: "خذ يا عم ريحان."

وعم ريحان (نفسه رتعة)، لا يكاد يرى النبق في يد أحدنا أو قطعة من "الجزر اليماني" حتى يميل بخطوة ناحية الواقف في لهفة فيتصوب الرشاش إلى بضاعة الدكان وينال زنبيل الدقيق منه الكثير الذي يعجنه.

ولا يكاد أبو ريحان يشعر بالمقلب الذي نسوقه إليه فنحن نعرف أن صاحب الدكان شرير وأنه يكفي لإثارته ضد عم ريحان أن نسوق عم ريحان بقربته الرشاشة إلى ما يقرب من الحائط ليتصل رشاش القربة ببضاعة عمنا الشرير.

لا يكاد أبو ريحان يشعر بمقلبنا فالقليل من النبق يذهله وينسيه ما قاساه أكثر من مرة من أهوال الرجل.

ويمضي أبو ريحان في تصعيده، فنتكتل خلفه معرضين أثوابنا النظيفة ودفاترنا وكتبنا لرشاشه اللذيذ، وربما تدافعنا خلفه ووقع بعضها بين رجليه فتعثرتا واختل توازنها فيصرخ فينا مهدداً متوعداً، ولكن قطعة من الجزر نضعها في فمه وهو يمضي منحنياً أمامنا تحت القربة كافية لأن تنبسط أساريره وربما استغرق في الضحك.. وهو يقضمها بشره.

ويزيد ضحكه إغراقاً إذا "مسكنا الزومان" خلفه على حركة أيدينا وهي تصفق: "أبو ريحان.. يا ساقي العطشان.. شفتك في الدرجان.. تغالط رمضان."

أنا شخصياً أشهد أن الرجل لا يفطر رمضان رغم ما يعاني من ثقل القربة ومشاوير الجبل ولكنه طيب إلى أبعد حدود الطيبة والتغفيل، ولا يهمه من أمر هذه الحياة إلاَّ أن يجمع

الهللة فوق الهللة، وأن تسخو يد الصغار له بشيء من "الفشار"، أو "طبطاب الجنة"، أو حتى "فوفلة" يضعها بين فكيه في غير وقت الصيام؛ فتسبيه وتسري عنه كل الهموم التي يعانيها من شقاوة الأطفال..

وكان لفرط سذاجته كثير الإساءة إلى عملائه وزبائنه.. إنه لا يقصد إساءة الناس ولكن سذاجته كثيراً ما تسوقه إلى أذى الناس كما شهدناه يرش دقيق صاحب الدكان بدافع من شراهته لقطعة من الجزر لوحنا له بها.

وقد يشاغبه طفل فيرميه بعصاه التي يتوكأ عليها، فتصادف رأس الطفل أو أنفه فيمضي باكياً إلى أهله أو ترتطم عصاه بأحد المارة أو ببضاعة أحد الباعة أو بمرآة معروضة في السوق، فيركبه الخطأ وتنهال عليه الشتائم ثم تتصل الشكاوى بشيخ السقاة "بعلولة" فيطبق عليه القوانين دون أن يثبت له شيء لفرط عيِّه وضعفه في الدفاع.

وكان السقاة في مكة جلهم أو كلهم بالأصح عبيداً أو عتقاء أو مولودين من العبيد والعتقاء على غرار عم ريحان، وقلما يوجد بينهم من بدو الحجاز الذين التحقوا بهم فيما بعد ليحملوا الماء في صفائح.. كان حمل القربة وقفاً على هؤلاء السود، فحملها لا يرقى لاحترافه البدو الطارئون.. يكفي أن يبيحوهم العيش على هامش البازان، دون أن يربطوهم بقواعد السقاية وقوانينها.

ربما أخطأ البدوي على زبون فحسب شيخ البازان توبيخه أو منعه من السقيا، أما إذا أخطأ الأسود من أمثال عم ريحان فعلى شيخ البازان أن يعامله معاملة الأصيل فلا يستبيح توبيخه أو منعه من السقيا حتى يحيل قضيته إلى الجمعية العمومية لتسمع له أو عليه ثم تقرر ما يفرضه القانون.

وتتكون الجمعية العمومية من سائر سقاتنا السود ولا يجوز لحامل صفائح "مهما بلغ شأنه"، أن يحضرها فهو ليس من فصيلة العبيد الأصلاء في البازانات.

وتتكون الجمعية عند اللزوم بدعوة من شيخ البازان في حلقة على التراب مستديرة على خطوات من البازان، يتصدرها شيخ البازان على يمينه وشماله أعضاء الميمنة والميسرة

حسب أصالتهم وأقدميتهم في البازان، ثم يأتي بعدهم بقية السقاة يحتلون مقاعدهم حسب ما يعرفون من مراكزهم وربما أبيح لبعضهم أن يأخذوا مقاعدهم من بعض الحجارة التي يصادفونها إذا كانوا كبار السن أو المقام، ويتورك الباقون على بساط الله فوق التراب.

وتتوسط الحلقة فروة مسجاة يقف نقيب البازان بجوارها على العصا.. عصا القانون الخاصة بالتنفيذ، وعندئذ تفتح الجلسة.

يفتحها الرئيس: "هذا أخوكم أبو فرج الله، أو أبو سنكيت، أو أبو ريحان، أخطأ في حق الشيخ فلان.. أخر عليه (المويه) أو كسر له الزير أو داس في بطن الغنمة أو أطال لسانه على الولد الصغير.. وقد وصلني الشيخ يطلب الحق.. ايش تشوفوا"؟

وهنا يميل أعضاء اليمين ليتهامسوا، وأعضاء اليسار ليتخافتوا ثم يهيب أحد الكبار: "طيب يا شيخ نسمع منه."..

وهم يقصدون أن يسمعوا من المتهم لأن المدعي لا يلزم بالحضور وحسبه أنه رفع حجته إلى شيخ البازان وعلى المتهم أن يدفعها.

والغريب في أمر المدعي أنهم يفرضون صدقه في أكثر الأوقات لأنه زبون وللزبون حرمته وقيمته، ولأن قانونهم لا يحب التهاون في ملاحقتهم ولو للشبهة أو الظنّة مبالغة في تربيتهم على الأدب في معاملة الزبائن وغير الزبائن من آحاد الناس.

بهذه الروح تستمع الجمعية إلى دفاع المتهم فلا تقتنع إلاَّ بتأديبه وعندئذ يدعى إلى الفروة التي تتوسط الحلقة فيتوسَّدها مبطوحاً على وجهه ويشرع النقيب عصاه ويبدأ الجلد.

وأي جلد هو؟؟ لقد كنت أتمنى إلى مشايخنا في المدرسة أن يتعلموا تقليده.. فليس ثمة خيزرانة لدنة تترك أثرها في الجلد بين اللازوردي والأزرق كما كان الحال في مدارسنا، بل هي قطعة من الغاب أو ما يشبه الغاب يوازي ثخنها ثخن المواصير ذات البوصة؛ لو ضرب بها الأطفال من أمثالي يومها عشرة لما وازت لسعة واحدة مما كنا نذوقه من أيدي مشايخنا.

ولهم في الجلد أساليب رحيمة.. إن يد الضارب لا تنفصل عن أبطه وهو إذا ضرب ثلاثاً في الإلية اليمنى انتقل إلى الجانب الآخر ليضرب مثلها في الإلية اليسرى ولا يطول الجلد

في الغالب إلى أكثر، لهذا فقانونهم الصارم يبيح للمتفرجة حول الحلقة أن يقدموا إلى الحلقة أي عود أخضر ولو من حزم البرسيم ليشفع العود الأخضر للجاني فيتوقف الجلد.

وكان قانونهم بقدر ما أراد أن يكون صارماً محتاطاً للشبهة أبى إلاَّ أن يمد للرحمة في أسلوب الجلد وتعطيله عند أي رمز يقدم للشفاعة.

وكان صاحبنا أبو ريحان وافر الحظ في حلقة التأديب فلا يكاد يقضى يوم أو اثنان حتى نسمع أنه مطلوب "للبداية"، والبداية في عرفهم هي الجمعية العمومية التي تدينه لأتفه الشكاوى، ويعجز لفرط عيِّه وقسوة القانون عن الدفاع فيفترش الفروة وسط الحلقة مستعيناً بالله على حكم الجلد، ولكنه لا يكاد يذوق الجلدة الأولى أو الثانية حتى تتهافت أعواد البرسيم على الحلقة من المتفرجة وأكثرهم يعطفون على بلاهته ويعرفون أن شراهته لما في أيدي الصغار من حلوى أو "نقل" وحرصه على ملاحقة الكسب الرخيص وإمساكه على (الهللة) بعد الأخرى، كلها أشياء تعرضه بالإضافة إلى بلاهته إلى الشغب وعبث الناس به حتى يقابحهم أو يتورط رغم ضعفه في مضاربتهم.

ومضت سنوات طويلة ابتعدت أثناءها عن المدرسة ونسيت (أبا ريحان)، حتى كنت في أحد الأيام أزور مستشفى أجياد فإذا جلبة عالية.. وإذا أناس يتجمعون حول سيارة الإسعاف عند باب المستشفى فوقفت أنظر فإذا أبو ريحان منقول على حمال الإسعاف في حالة يبكي لها الفؤاد، وإذا طائفة من كبار السقاة على رأسهم شيخهم (بعلولة) يتبعونه في أسى صامت فوجدتني أتابعهم بدافع من علاقة الطفولة حتى إذا استوى فوق أحد الأسرة فتح عينيه في ضعف فلما رآني بين الوقوف انفرجت شفتاه في ألم بالغ: "يا ولد سيدي.. شوفي الله يخليكي ليش جابوني هنا.. أنا ما سويت شي."!!

مسكين.. لقد اصطلحت عليه السذاجة وهذيان الألم فاختلطت عليه الأمور.

وملت إلى أحد "سناديله" أستفسره الأمر فراح يشرح لي ما أصابه: عاش أبو ريحان محروماً من لذة العيش يجمع الهللة إلى الهللة، ولا يسخو لنفسه بلقمة طيبة يشتهيها، فاستغل أحد الشطار لؤمه وراح يدعوه إلى أطايب الأكل في براءة جازت على سذاجته حتى

إذا تمكن من قلبه وسيطر على عقله استطاع بأسلوبه الخلاب أن يستولي على ذخيرة أبي ريحان حصيلة العمر على أن يحفظها له ويقدم له من أرباحها ما يشتهي من لذائذ العيش فلما باتت في يده لم يبرح حتى تنكر له ومنعه حتى رغيف العيش الحاف.

واحتدم أبو ريحان غيظاً وارتفعت عقيرته فألهب حماس الشاطر وصاح به: "روح.. مالك عندي شي."

فكانت صدمة نقلت أبا ريحان إلى المستشفى ليواجه ذهول الموت.

أخطأ العفريت ولم أخطيء



* * *

هالتها آلام الرضوض في رجلي، وساءها مرور الأيام طويلة دون أن تبدر للشفاء بادرة، أو يظهر في رجلي ما يدل على تحسن حالها فقالت:

–يعني أنت ليش ما تستعقد؟؟

–في ايش أستعقد؟

–لازم تعرف أن الطبة ما تسوي في رجلك هذا الحال كله!

–ولكنها سوت زي ما أنت شايفة.

–ما سوتها الطبة لوحدها!!

–أجل في شي تاني غير الطبة سواها معاها؟؟

–انت بنفسك فكر!

–وإذا كان فكري ما يصلح.. ليش اللي زيك ما ينفعني بفكره؟؟

–أنت ما تستعقد!

–يعني رجعنا (للاستعقاد) حقك هادا.. مرة ثانية؟؟

–نعم أنت رحت الأشعة واتعالجت عند الدكتور، وجبت المجبر في البيت عشر مرات، تقدر تقوللي ايش قدروا كلهم هادول يسووا لك؟؟

–الصحيح ما قدروا.. ولكني إيش أسوي.. ما دام يقولوا الوجع كباس!! والعافية نسناس؟؟

–لا يا سيدي تقدر تسوي كل شيء.. لكنك ما تستعقد.

–يعني احنا برضنا في هذا الاستعقاد اللي ما أنت راضية تبينيه.

–أنا أبينه.. لكن أنت رجَّال تتريق وتسويني مضحكة.

–لا.. في هادي المرة منت مضحكة.. بس بيني لي الهرجة اللي يمشي عليها الجمل.

–وما تضحك علي؟؟

–إذا كان هرجك مضبوط.. ليش أضحك؟؟

–هه.. باين تبغا تضحك عليّ.

–أجل أنت عارفة هرجك مو مظبوط؟

–لا.. يمكن مظبوط.

–يمكن و.؟. بس؟؟ سار أنت شاكة في هرجك بنفسك؟

–لا.. ماني شاكَّة.. هيا اسمع!! انت تدري لمحت على مين؟؟

–أنا.؟. أنا طحت على مين؟

–أيوه.. أنت طحت على مين؟

–هو دا سؤال؟ طحت على مين؟.. أنا يا ستي طحت على حجر!!

–هه.. هادي هي قلة الاستعقاد.

–طيب والاستعقاد ايش يقول؟ يجيب لي الاستعقاد شيء من الخيال.. ويقول لي أنت طحت بالغصيبة عليه.

–لا.. مو كده.. أنت تقدر تقولي طحت على شي ما شفته.

–يعني طحت على شي صغير ما ينشاف؟ على كده هذا الصغير ما يعورني.. أنا الحجر اللي شفته هو اللي صحيح يعور.

–برضك مانت راضي تستعقد.

–يا ستي والله أستعقد.. بس هاتي فهميني شي أستعقده.

–يعني أنت ما تعرف أن الأرض فيها عمار؟

–يعني من الجن؟؟

–أيوه.. من الجن.

–طيب وأنا ايش لي.. وايش لهم؟

–برضك رجعت؟؟ ما تستعقد.

–يعني استعقد متى؟؟ بعد أفهم.. وإلا قبل أفهم؟؟ أنت ما دام مستعقدة فهميني تكسبي ثوابي.

–قلت لك الأرض فيها عمار.

–فهمت أنه فيها عمار.. العمار ايش لهم وايش لي.. أنا راجل طحت على الحجر.. انفركت رجلي.. اترضت.. انفكت.. يعني غرضك يمكن أن الحجر جني؟؟

–أيوه.. يمكن.

–طيب وكيف أفهم أن الحجر جني.. ايش الدليل.. وإلا بس الواحد يستعقد من غير دليل.

–إلاَّ في دليل.. الدليل أن الأرض مليانة بالجن.

–يعني يمكن هذا الحجر جني؟

–مو بعيد.

–طيب وهادي الحجارة كلها اللي الناس طايحين فيها تكسير بالفواقيش والعتل.. كلها هادي الحجارة جن؟؟ والا بس هادا الحجر لوحده جني؟؟

–مو بعيد يكون هذا لوحده جني.

–طيب هذا الحجر لوحده جني فهمنا.. إيش لو هدا الجني عندي؟

–أنت لا بدك عورته!

–كيف عورته؟

–طحت عليه!!

–يعني مقصودك جيت لقيت حجر قاعد في الأرض.. قمت رميت نفسي عليه علشان أعوره؟؟ هادي هي هرجتك اللي تبغيني استعقد فيها؟ طيب أنا أخطيت عليك يا حجر.. لكن الحجر في قياسك.. ما أخطى علي؟

–إيش هو خطا الحجر؟؟

–ليش ما صاح في وقاللي ترى يا شيخ انتبه.. أنا جني!! روح عني بعيد؟

–تبغي الحجر يصيح؟

–إذا ما صاح سار هو المخطيء.. أول حاجة هو شافني أطيح.. والناس ما تطيح إلاَّ غصباً عنها فكان لازم يشرد من طيحتي.. الشيء التاني لما شافني قريب الطيحة ليش ما صاح في وشي وقال: روح عني بعيد.. ترى أنا جنى، وأقل شي يعورني.

–هادا الهرج يا شيخ.. الناس ما تقوله!!

–أبداً.. الناس ما يعجبهم إلاَّ الهرج اللي يكون باين فيه محل الخطأ والصواب.. أما إن كان الجن أحكامهم غير كده.. فهادا يسير خطأهم مو خطايا أنا.. أنت لما تكوني قاعدة محل الجني وشفتيني طحت فوقك غصباً عني.. ايش رأيك؟ ما تعذريني؟؟ إن ما عذرتيني.. تسيري ما نت عاقلة.

–لا.. أعذرك!!

–طيب ليش الجني ما يعذرني؟.. وخصوصاً وهو يدري أني ماني شايف غير حجر.

–لا بده ما يعذر.

–أجل أنت أخطيتي عليه دحين أكتر مني.

–ليه؟؟!

–لأنك سويتيه ظالم، واعتبرتيه ما يعرف اللي لو.. واللي عليه.. فإن كان هو تمام.. يزعل منك من صحيح.. ويمسك رجلك بدال رجلي.. لأني رجال ما اعتديت عليه.. أما أنت كلامك كله تعدي عليه.

–وي.. هيا جينا لهرج المجانين!!

وما أتمت كلمتها حتى كان صوت غلاية الشاي فوق الموقد يناديها فأولتني ظهرها مسرعة، وهي تحوقل من غرابة أطواري وقلة اعتقادي.

وتركتني بعد هذا أضيف إلى جنوني مرتبة جديدة في الجنون تصور لي هذا الحصى الذي أطأه، والأحجار التي أدوسها، وقطع الأخشاب التي ربما تكسرت تحت قدمي وأنا لا أعلم من أمرها شيئاً.. كل هذه أتصورها أخيراً عالماً من الجان تأخذ علينا السبل، وتعاقبنا أشد العقوبة وأقساها إذا وطئناها.!!

سأضرب ابتداء من يومي عن المشي حتى لا تصطدم رجلي بعد الآن بأحد عمار الأرض وسأقنع بالبقاء في بيتي لا أريم خطوة، فهل يوافقني مجنون يناصر مذهبي ويدعو معي إلى هذا الاعتكاف؟؟

وهل يرضى العقلاء أن يحذفوا هذه السيدة من بنودهم ليضيفوهم إلى المجانين، وينقلوني لأحتل المركز الذي كانت تحتله بينهم في صفوف العقلاء؟؟

أيرضيهم هذا؟ أم يظلون على تعصبهم لا يقبلون الهوادة فيما صنفوا ولا تزجرهم البراهين عما اعتقدوا؟

إذا صح هذا فبارك اللهم علي نعمة الجنون!

بعد أن طاب السفرجل



* * *

خديجة الفقهية من عائلات مكة العريقة قرأت المصحف على أبيها الشيخ وجوَّدت آياته، وحفظت جملة صالحة من كتب الحديث، وتمرَّست في فن الخط والحساب إلى حد كان لا يتيحه عهدها يوم كان من عيوب الفتاة أن تتعلم كيف تكتب.

وأصابها الزمان في أبيها ثم في زوجها دون أن تخلف منه ولداً يعولها فرأت أن تتخذ لها كتّاباً تعلم فيه البنات لتكسب عيشها وما يقيم أودها.

كان كتّابها يقع في زقاق يتفرع من المدعى يسمونه زقاق الشيش، وكنت لا تمر بالزقاق في أي ساعة من ساعات النهار حتى تصافح أذنيك أصوات البنات يقرأن في ضجة عالية.. وربما سمعت بعض المارة من أتراب أبيها كبار السن يتلمظون حياتها في عهد أبيها: "والله وعرفت تخلف مين يا شيخ سليمان.. الله يقويك يا بنت الشيخ.. يا خدوج!!

وكتّاب خديجة الفقهية أو –خدوج– كما يتراءى لأتراب أبيها أن يدللوها، لا يزيد عن غرفة واحدة متّسعة الأطراف قسمت البنات بين أركانها إلى ثلاثة فصول.. فصل يتهجى الأليف لاشيون عليها.. وفصل يفك الحرف في قصار السور من جزء عم.. وفصل بالغ الغاية تتربع كل بنت فيه أمام كرسي مزدوج يحمل مصحفها تقرأ فيه طوال السور وتتابع ما تقرأ بأصبعها أو ريشة تتخذها من ريش الحمام تشير بها إلى حروف الكلمات وهي تقرأها –(فين الغنة يا بنت.. افتحي فمك بالمد.. يعني منت شايفه السكون بعد المد يبغى له ست حركات.(

ولا يقبل كتّاب خديجة أو خدوج أطفالاً من الذكور –هادا يا ستي كتّاب مخصوص للبنات.. والعذر لله ولك.. شوفي هناك كتّاب الشيخ الصنعاني في دحديرة القرارة ليش ما توديه؟.. كتّاب عليه فتوح ألف ما شاء الله..

ومع هذا فقد وجد بعض الذكور طريقهم إلى الكتّاب في عدد لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة، كان سن أكبرهم حسان لا يتخطى العاشرة إلاَّ بشهور، رأت الفقيهة أن لا مناص من قبولهم لأنهم جيرانها "والواد الكبير حسان ربنا ممسد على وشه.. ولد هادي ما عنده شيطنه."..

كانت تقنع نفسها وتقنع أمهات الطالبات بمثل هذا وهي تخفي في قرارتها شطارة حسان في قضاء أكثر حاجاتها الصغيرة من السوق، واستفادتها من أبيه البائع البليلة عند باب الكتّاب "من فضلك روح يا عم قاسم دخيلك قضي لنا وصلة لحمة شوية ملوخية بس جيبها من العثري.. وزل من فضلك على أبو سعدية خذ منه العادة.. ربنا ما تقطع له عادة إن شاء الله.."

وأبو سعدية من مشاهير الصاغة في زقاق الحجر أمام باب النبي.. كان كبيراً في عمله، كبيراً في ثروته، كبيراً في شهامته وبذله، كبيراً في عطفه على ضعفاء الناس كما كان كبيراً في حارته: "عند الله وعندك يا أبو سعدية.. إحنا ما نسينا إنك، شلت الزينة على رأسك.. فتحت كيسك وبيتك.. الحارة ما تنسى لك جميلك.. إحنا ترى عندنا خرجه عازمين أهل النقا في

الشهداء.. إحنا بس نبغا الطلبان منك والباقي على الله.. عندنا أبو صادق والشريم والبالع برضهم أهل فزعه ما هم متأخرين بس أنت سيد الكل.. راس القايمة."

" –يا مرحبا.. حيا الله نباكم.. بس ألحق صلاة العصر مع الجماعة وأرسلوا لي النقيب.. واللي تقولوه علي ماشي.."

* * *

أجل ماشي.. فقد تعودت نفسه السخاء وأدركت فقيهتنا ميزته في البذل فأخذت تعنى بسعدية ابنته عناية فائقة واستطاعت أن تستدر عطفه على الكتّاب.

–البزوره يكسروا ألواحهم يا أبو سعدية ويقطعوا الأختام.. أكثرهم فقرا ما عندهم يشتروا بدالها.. كمان –المضر– زي مانت شايف عمال يخلص قبل الدور.. فزعتك يا أبو سعدية إلهي ما يحرمنا منك!!

–طيب أرسلي لي عم قاسم كل دور.. وربنا يقدرنا على الطيب! وكان الطيب ريالين (مجيدي)، أصبحت عادة ينفحها أبو سعدية للكتّاب كل أسبوع.

وأدرك العم قاسم ما يتمتع به أبو سعدية من أريحية فكان إذا بارت بليلته في نهاية بعض الأمسيات كلف حسان ولده أن يحملها إلى دكان أبي سعدية: "يسلم عليك أبويا ويقول لك شوف اليوم البليلة زي المخ خلالك منها شوية علشان سعدية وأخوانها."

–طيب وديها البيت يا حسان.. وهادا ريال حق البليلة وهادا ربع ريال لك.. واد يا حسان لو بدك تشتهي البليلة كل مع سعدية يا ولدي.. وشوف عندهم سفرجل خليهم يعطوك كم حبة وديها لأمك في البيت تسويها مربه. ويفترش حسان وسعدية أرض الخارجه فوق مفرش صغير أمام صحن من البليلة وآخر من السفرجل!! وتشعر سعدية بدافع لا تفهمه أن عليها أن تكرم حسان في بيتها. فتقدم له قطع السفرجل المقشور فيتقبلها ممتناً ولا يعرف لحداثة سنه كيف يقابل جميلها فتختلط المعاني في نفسه، وتضطرب ويشعر بنأمة خفيفة تنبض في صدره لا يتبين لها معنى ويحس أن عليه أن يفعل شيئاً من أجلها فتسبقه نفسه إلى جبينها

يطبع عليه قبلة خفيفة!! أودعها امتنانه كما كان يشهد أمه تطبع على جبين سعدية نفسها مثل هذه القبلة كلّما حملت إليها هدية من أمها أو تفصيلة جديدة للعيد تبر بها جارتها.

ودخلت أم سعدية فجأة على حسان وهو يطبع قبلته البريئة على جبين ابنتها ورأت ابنتها تضحك لبادرته الحلوة فطاش الدم في صفحة وجهها، وانهالت تضربه بمروحة الكوانين في يدها: "كدا ياللي ما تستحي.. يقولوا عليك ولد هادي وانت تعرف هادي المسخرة.. امش من هنا لا عاد أشوف وشك في هذا البيت أكسر رجلك.."، "وانت يا بنت سعدية كيف تخليه يسلم عليك ولد زي هادا ما يعرف العيب.. اصحي تاني مرة أشوفك تهرجيه."

لم يفهم حسان معنى لهذا الزعل المفاجىء ولم يفهم معنى لطرده من البيت وما ناله من ضرب المروحة. عهده بأم سعدية تحدب عليه وتعطف على أمه كجارة وفية ودودة، فلم يملك إلاَّ أن يسلم ساقيه للريح حتى إذا انتهى إلى الشارع ساقته قدمه إلى عتبة باب الكتّاب، فركن إليها وراح في ذهول يستعرض في عقله الصغير كل الأسباب التي تحتمل ثورة أم سعدية عليه وطرده بهذه الصورة المهينة، فلم يسعفه خياله البريء بأي معنى يفسر ما حدث.

وفجعت سعدية بدورها لما حدث، فلم تملك إلاَّ أن تبكي بدموع مدرارة.. ونهرتها أمها فمالت بجسدها على الأرض وأخذت ترفس برجليها وتشهق ببكائها في طفولة مجنونة.

وأمسى الليل عليها فأخذت سبيلها إلى مضجعها في –الخارجة– تحاول النوم ولكن النوم أبى لأول مرة في حياتها إلاَّ أن يستعصي عليها.

تبلبلت أفكارها وذهبت بها آلاف المذاهب.. لم يخرج حسان مضروباً مطروداً بلا ذنب؟ حاولت في حدود ما يتيحه سنها أن تفهم سبباً لما حدث فطافت بذهنها آلاف الظنون إلاَّ قصة القبلة على جبينها فقد تعودت مثلها من أمها وأبيها وأكثر أقربائها.. تعودتها على جبينها ووجنتيها وثغرها من معارفها وجيرانها رجالاً ونساء كما تعودتها من فقيهتها في الكتّاب!!

طافت بذهنها آلاف الظنون إلاَّ قصة القبلة فالتبس عليها الأمر واختلط، وجفاها النوم فلم يغمض لها جفن إلاَّ بعد أن أسفر الصباح.

عندما شعرت بثقل أجفانها ورأت نفسها فيما يرى الغافي تجري إلى بيت حسان لتسترضيه فيهولها نحيبه وقد ملأ البيت وتنادي بأمه لتفتح لها باب البيت وقد وجدته مغلقاً في وجهها فيطل وجه الأم من نافذتها ثم يشيح عنها في ازدراء!!

هبت من نومها مذعورة فآلت على نفسها في سرها أن تستعجل خروجها إلى الكتّاب لتقابل حسان وتسترضيه فيما حدث من أمها ولكنها ما كادت تخطو حتى سمعت أمها: "يا أبو سعدية بلاشى على البنت كتّاب علشان خاطر هادا الواد حسان.. وترى لا عاد يجيني البيت بعد كده.. ترى أكسر رجله ناقص علينا ولد هايف زي دا. قال إيه.. قال: أبوه بياع بليلة.. قرف!! وحاول أبو سعدية أن يفهم الفكرة فأبت إلاَّ أن تعمي عليه: "بس كدى هادي بنت وأمها أدرى بها.. انت مالك شغل.. البنت تنطق في البيت.. وانت خليك في شغلك."

لم يرق لأبي سعدية أن يتوسع إلى أكثر من هذا فقد عاش بخلقه الرضي يتحاشى مواجهة الحياة من جوانبها المظلمة! "سيبك يا سيدي.. ما دام أمها تبغا إلاَّ كدا اشلي واشل."

و (انْطَقَّت) البنت في البيت لا تريم عنه إلاَّ لما ليس منه بد. ولكن المسكينة عاشت وفي نفسها حزازة لهذا –الغلبان– الذي شهدت هونه في بيتها وعجزت عن إنصافه واسترضائه.

كانت تختلس بعض حبات الرمان أو الخوخ كلما دخل بيتها وتدسه في يد أختها الصغيرة، اجري يا صالح أعط هادا لحسان في بسطة البليلة.. ترى اصحي أمك تشوفك بعدين أبسك!!

كانت تعتقد أنها ترضي ربها لقاء ما حدث –للغلبان– في بيتها لا أكثر.. وكان حسان يتقبل هديتها في صمت دون أن يعلق عليها بحرف فقد ألف عطف أبيها قبلها فما خالجه قط أن هديتها تتسع لأوسع ما يفهم في حدود هذا المعنى.

وربما عنَّ له في بعض الحالات أن يقابل هديتها بشيء من البليلة يضعه في جيب "غثفة" أختها الصغيرة ويوصيها أن تأكلها مع سعدية.

وجاءته مرة بحبات من المشمش وكانت في يده سفرجلة فدسها في غتفتها لتحملها إلى سعدية، فما كادت سعدية تلمسها حتى ذكرت يوم السفرجل المقشور وما أعقبه من إهانة وطرد فسالت دمعتها وارتابت في الأمر ربما أرادها أن تتذكر في السفرجلة سيئات ما ناله في بيتها ولم يدر بخلدها أنها لم تكن إلاَّ صدفة.. مجرد صدفة لا أكثر.

* * *

ومضت سنوات نسيت فيها سعدية أمر حسان إلاَّ في فترات متفاوتة يدخل فيها السفرجل بيتها أو تمر فيها بباب الكتّاب حيث كانت تلعب مع حسان أو تشتري صحن البليلة من أبيه.

ولكن أين أبوه بعد هذه السنوات؟.. لقد كان يبسط بضاعته من البليلة في ظل هذا الركن.. وأين حسان نفسه.. لم لا ترى له أثراً في هذه الأزقة المتعارضة وكانت مرتع طفولته؟

وعنَّ لها في أحد الأيام أن تستدرج لسان العم بادريق العجوز، وكانت في طفولتها تشتري منه الزرنباك والحلاوة الموزية، فنفض إليها العجوز خلاصة ما يعرف: (إيه يا بنتي أبو حسان يعيش رأسك من سنين.. أما حسان فسعده سعد. هو اليوم في المدرسة الرشيدية مع الأفندية الذوات!!)

* * *

لقد مات والد حسان وماتت والدته فتبناه رجل من الأشراف يشتغل في قصر إمارة مكة مركزاً محترماً.. وألحقه الشريف بالمدرسة الرشدية وكان قد أسسها رجال الدستور في ذلك العهد، فظهرت عليه مخايل النجابة واستطاع أن يحقق نجاحاً هيأه لعمل وظيفي ممتاز في دائرة حكومية.

وشعر بحاجته إلى أن يكمل نصف دينه وأن يستقل ببيت خاص فعرض عليه متبنّيه بعض بنات العائلات وكادت الموافقة أن تتم لولا أن ثمة بيتاً كان صاحبه يعطف عليه في صغره

وثمة فتاة كان عزيزاً عليها.. كانت تقشر له السفرجل!! وتنفحه هداياها من الرمان والخوخ في أسلوب صبياني لذيذ رغم ما ناله من شراسة أمها، فما يمنعه أن يبني على فتاة كان يلمس عطفها وحنوها ويصاهر رجلاً نادر المثال في أريحيته وأخلاقه.

أفضى بالأمر إلى متبنّيه الشريف فاستصوب الرأي ومضى من يومه إلى أبي سعدية في دكانه فوجد عنده ما أرضاه –"متى ما شاء الله سار في هادي الوظيفة؟ الله يأخذ بيده كمان وكمان.. هادا ولد مؤدب وكان أبوه الله يرحمه من الناس الطيبين.. أنا يا أخويا كبرت وما عندي أولاد.. يا مرحبا به خليه يسير كبير البيت.. أموت وأنا مطمئن.. دخيلك خليه يزل علي في البيت مشتهي أشوفه."

وحمل الشريف إلى حسان أمر الرضا ورغب إليه أن يزور الرجل في بيته فأسرع إلى ذلك من يومه تسوقه ذكريات مشبوبة وشوق طافح ولكنه ما كاد يطرق الباب حتى سمع صوتاً لم ينكره رغم تقدم السنين.. صوت والدة سعدية تهيب به: ما فيش هنا أحد.. إن كان تبغا سيد البيت رح له في الدكان.

استغرب حسان ما رأى وسمع وأدرك أن يطرد مرة ثانية من هذا البيت فهاله الأمر وحز في نفسه بشكل لا يطاق.

ولم يعجزه أن يعلل الأمر فهو يعلم أن سيدة البيت أساءت فهم طفولته يوم السفرجل واحتقرت صلته بفتاتها وهو ابن بائع بليلة.. وهي اليوم لا تدري شيئاً عن مكانته كشاب مرموق.. كما يعلم أن زوجها الطيب رغم أنه يفهم مثل هذه الأمور على غير هذا النحو الأهوج، ولكنه لا يملك في الوقت نفسه أن يؤثر على أفكارها في الحياة أو يقودها إلى ما يعتقد صلاحه.

كتم كل هذا في نفسه دون أن يبدي منه شيئاً لمتبنّيه الشريف وأكّد عزمه على أن يستجر آلامه وحده وأن يلغي فكرة الزواج من ذهنه ما عاش.

* * *

ولم تمض أيام حتى انطلقت الرصاصة الأولى من قصر الحسين في مكة تعلن ثورته على العثمانيين، فانضم إليها حسان في فتية من كبار الموظفين زملائه يخدمون القضية تحت غمرة الحسين، وبدأت وفود الهيئات العربية من الشام والعراق، ومندوبو الجمعيات العربية المغتربة في إنكلترا وفرنسا وسويسرا تنثال على مكة لتقدم تأييدها للحسين، فندب حسان ليتولى الإشراف على استقبال كبار الضيوف ومناقشتهم في بعض المهام التي ندبوا لها وتقديمهم إلى الحسين حسب درجاتهم وأهمية استعدادهم لخدمة القضية العربية.

ومضت شهور صدرت أوامر الحسين على إثرها بتجنيد المتطوعين من حارات مكة – الفزيعة– واستنفار القبائل الموالية في الحجاز للعمل في جيش الشمال الزاحف إلى سورية تحت إمرة أحد أبناء الحسين، فانضم حسان إلى الفرقة العاملة في دائرة أموال الجيش.

وبات الجيش في طريقه إلى الشام يتلقى إعانة الحلفاء المالية صناديق من جنيهات الذهب الإنكليزي فغمرت الأموال أفراد الجيش وجميع العاملين في إدارته بشكل فياض واسع.

وعندما عسكر الجيش في العقبة وطال مكثه اتسعت أسواق الحاجيات حول ميدانه وتفاقمت أسعارها، فبيعت وقيَّة الملح بما لا يقل عن قيمة الريال وبيع رطل السكر بما يوازي جنيهاً إنكليزياً، وبيعت علبة الدخان بأكثر من ريالين دون أن يتذمر المستهلكون لوفرة المال في أيديهم وكثرة الذهب في جيوبهم.

وتاقت نفس حسان للعمل في التجارة إلى جانب عمله الوظيفي ورأى في حوزته من المال ما يتّسع لأوسع الأعمال فيها، فاستأذن قيادته في الأمر فلم تعارض القيادة لحاجة الميدان إلى اتِّساع رقعة السوق، فأرسل إلى مكة من يختار لدكانه الواسع آلاف الأصناف، واختار لإدارته صديقاً وفياً؛ فانثالت الأرباح عليه بصورة كان لا يحلم بها.

كان يقضي سحابة يومه في إدارة أعماله الوظيفية فإذا أظله المساء هرع إلى الدكان ليشرف على أعمال البيع ويقفل حسابه اليومي ويحصي أرباحه التي ظلت تتطور كلما تطورت الأيام.

وإنه لفي دكانه ذات ليلة وإذا رسول أمير الجيش يدعوه ليلبي طلب الأمير في أمر مستعجل، فأسرع من فوره إلى خيمة الأمير، فإذا رجل من مكة بين يدي الأمير.. وما أن سلَّم حتى بادره الأمير:

–تعرف هذا؟

–أجل كنت أعرفه وأنا صغير السن أبيع البليلة بجوار أبي وكنت أشهده أحياناً يزور بيتاً معروفاً هناك.

وهنا ابتدره الرجل: "العلم لك خير يا حسان.. إنت سيبت هناك في مكة قلب: تقطع علشانك.. لا تقل لي أيت قلب.. أنت لا بدك ما نسيت واحدة اسمها سعدية كنت معاها وأنت صغير.

–لا والله ما نسيت لكن ما أعرف قلب مين اللي يتقطع.

–شوف يا ولدي.. وجه الله ما عليه غطا.. أنت خطبت هادي البنت وأبوها رضى.. وقفت أمها زي لقمة الخانوق في الحلق.. سار اللي سار البنت سمعت حكاية الخطبة ما قدرت تقول ولا كلمة، طاحت وجعانة في محلها.. تعبنا حكما.. تعبنا طببا ما فيش فائدة.. قول الأم أخذ الله بوداعتها وماتت، البنت جاها عشرين خطيب ما فيش فائدة.. مين يتزوج؟.. تتزوج واحدة على الفراش!! ما أكثر عليك أنا خال البنت جافى بال الأبو يمكن البنت مقهورة من يوم ردوا خطبتك.. عرفني أبوها على الحكاية قلت ولا شيء عندي.. أنا أروح أجس لك النبض.. دخلت لك على سعدية.. يا سعدية هادا حسان الأولاني جاء يخطبك وأبوك رضى ايش تشوفي.. أنا قلت هادي الكلمة ولا شفت لك إلاَّ البنت فتحت عيونها وصحصحت وسمعتو سمعتها تقول بنفس مفتوحة اللي تشوفوه يا خالي.

بس أنا مو حمار.. فهمت الهرجة من طقطق لسلام عليكم، ورحت أجري لأبوها قال لي خلاص شوف حسان أنا سألت عنه قالوا في العقبة مع الجيش وقالوا لي الرجل مضرب عن الزواج من يوم ما صكوا الباب في وجهه.. ايش تشوف؟ قلت له ولا أشوف ولا شيء أنا

أقدر علشان خاطر الضعيفة هادي أمد رجلي للعقبة إن كان لقيته مشترينا برضه الله يحيي نباه.. إن كان.. لا.. جيتك على تياري. وربنا يلطف بالبنت ولا يأخذ عمرها وتستريح.

واديك تشوفني دحين مسكوني للأمير وأنا داخل العقبة حسبوني جاسوس نصيت عليه الهرجه بزي ما هيا.

والتفت الأمير في هذه اللحظة إلى حسان يستوضحه الأمر، أصحيح ما يدعيه الرجل أم هو تلفيق جاسوس؟!

وقبل أن يتفوه حسان كانت الدمعة قد سبقت إلى عينيه واختلطت قطراتها بشفتيه وهو يتفوّه: "أيها الأمير: كل ما قال صحيح.. وإذا أذنتم لي بنجدتها فإن نفسي وما أملك فداء لها.. وقد طاب اليوم السفرجل!!"

وأطرق الأمير ملياً ثم رفع رأسه ليقول: إنك صفي عندنا. ومن النادر أن نجد من يعدِلك أمانة وكفاءة وإخلاصاً.. ولكننا سنسخو بك في سبيل روح غالية.. أرى أن تبادر إلى مكة من ليلتك وسنختار من يشرف على عملك في الوظيفة ويتولى شؤونك في –الدكان.. اجمع من أموالك ما شئت واترك ما شئت لمن يخلفك على شؤونه.. هيا وأسرع إلى مأمور النقل عن أمري ليجهزك وزميلك بما يكفيك من ركائب الجيش السريعة وما يلزمك للمؤونة والعتاد.. وأرى أن لا تبيت إلاَّ على طريق مكة.

* * *

وأنجب السعيدان على أثر هذا فتى عاش بعدهما واسع الثراء بعيد الآمال، ظل يدير عملاً ناجحاً في جدة ثم انتقل بأعماله كما قيل إلى جنوب إفريقيا، ولعله يعيش اليوم فيها إن لم تكن تجارته قد دفعته إلى ميادين أوسع.

[تمت بحمد الله تبارك وتعالى]

الفهرس